كتاب تاريخ مدينة فاس

المعروف بـ

زهرة الآس في بناء مدينة فاس

للجزنائي

دراسة وتحقيق وتعليق

مديحة الشرقاوى

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

كتاب تاريخ مدينة فاس

كتاب تاريخ مدينة فاس

المعروف ب

زهرة الآس في بناء مدينة فاس

للجزنائي

دراسة وتحقيق وتعليق

مديحة الشرقاوي

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر

ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧

إهداء

أهدي هذا العمل إلى روح

رائد الفكر المغربي الأندلسي

الدكتور حسين مؤنس

تحية وتقدير

وعرفاناً

بالجميل



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله الصادق الأمين وعلى أله وصحبه وبعد :

مـــازال المغـــرب العـــربى الإســـلامى يكون ميداناً هاماً من ميادين التاريخ الإســـلامى ، التى تحتاج إلى دراسة وبحث وتمحيص حتى يقف أبناء الأمة الإسلامية اليـــوم عـــلى معـــرفة منابع القوة الحقيقية التى تكفل لهم استرداد سألف عظمتهم ورسالتهم السامية فى خدمة الحضارة الإنسانية ذلك أن المغربى قد أسهم بدور فريد فى حمـــل رســـالة الإسلام وحضارته إلى أوروبا ، كما كان فى الوقت نفسه أرض الطـــليعة التى تعرضت للأحقاد الأوروبية الزاحفة على دار الإسلام، والدرع الذى كسر أنياب هذه الهجمة الحاقدة على الإسلام وأهله .

إن مديـــنة فـــاس الـــتاريخية فى المغـــرب العربى لهى واحدة من درر المدن الإسلامية الثقافية ، ولا يضاهى دورها فى المغرب الإسلامى سوى القيروان وقرطبة وكمـــا جـــاء فى المسالك للعمرى: أنها تشبه دمشق وغرناطة وأهلها يشبهون أهل الإسكندرية فى المحافظة على علوم الشريعة وتغيير المنكر والقيام بالناموس .

ويقـــول القزوينى فى كتابه أثار البلاد وأخبار العباد صـــ ١٢ — ١٣ عن مدينة فاس : مدينة كبيرة مشهورة فى بلاد بربر على بر المغرب بين ثنيتين عظيمتين، والعمـ ـا ة قـــد تصاعدت حتى بلغت مستواها، وقد تفجرت كلها عيوناً تسيل إلى

قـــراره إلى نهـــر منبسط إلى الأرض ينساب إلى مروج خضر، وعليها داخل المدينة ستمائة رَحْى ولها قهندز فى أرفع موضع فيها ويسقيها نهر يسمى المفروش .

وقـــال أبـــو عبيد البكرى : فاس منقسمة قسمين وهى مدينتان مسورتان يقال لأحدهما عدوة القرويين وللأخرى عدوة الأندلسيين ، وفى كل دار جدول ماء وعلى بابها رحى وبستان ، وهى أكثر بلاد المغرب ثماراً وخيراً ، وأكثر بلاد المغرب يهـــوداً ، فيهـــا يختلفون إلى سائر الأفاق، بها تفاح حلو يعرف بالأطرابلسى حسن الطعـــم جـــداً ، يصلح بعدوة الأندلسيين ولا يصلح بعدوة القرويين وسميذ عدوة الأندلســـيين أشجع من رجال القرويين ونساؤهم أجمل، ورجال القرويين أحمد من رجال الأندلسيين.

قال إبراهيم الأصيلى :

دَخَلْتُ فاساً وبى شَوْق إلى فـــاس	والجبن يأخذ العينين والـــرأس
فلست أدخل فاساً ما حييت ولو	أعطيت فاسا وما فيها من الناس

ويقـــول يـــاقوت فى كتابه معجم البلدان عن مدينة فَاسُ : بالسين المهملة بـــلفظ فـــاس النجار ، مدينة مشهورة كبيرة على برِّ المغرب من بلاد البربر وهى حاضـــرة البحر وأجلُّ مُدُنه قبل أن تختطّ مَرَّاكشُ وفاس مختطُة بين ثنيَّتين عظيمتين وقـــد تصاعدت العمارة فى جبنهما على الجبل حتى بلغت مستواهما من رأسه وقد تفجَّـــرت كلُّها عيوناً تسيل إلى قرارة واديها إلى نهر متوسط مستنبط على الأرض منبجس من عيون فى غربها على ثُلُثى فرسخ منها بجزيرة ذَوى ثم ينساب يميناً وشمالاً فى مروج خُضر فإذا انتهى النهر إلى المدينة طلب قرارها ليفترق منه ثمانية أنهار تشقُّ المديـــنة عليها نحو ستمائة رحَى فى داخل المدينة كلُّها دائرة لا تبطل ليلاً ولا نهاراً تدخـــل مـــن تلك الأنهار فى كل دار ساقيةُ ماء كبارُ وصغارُ وليس بالمغرب مدينة

يتخلّلها الماء غيرها إلا غرناطة بالأندلس ... وبفاس يُسمعُ الأُرْجُوَانُ والأكسية القِرْمزية وقلعتها فى أرفع موضع فيها يشقّها نهر يسنُّى الماء المقروش إذا تجاوز القلعة أدار رحــاً هناك وفيها ثلاثة جوامع يُخْطَب يوم الجمعة فى جميعها ... قال عبيد الــبكرى : مديــنة فاس مدينتان مفترقتان مسوَّرتان وهى مدينتان عدوة القَرَوِيّين وعدوة الأندلسيين وعلى باب دار الرجل رحاه وبستانه بأنواع التمر وجداول الماء تخترق فى داره وبالمدينتين أكثر من ثلاثمائة رحا وبها نحو عشرين حماماً وعلى أكثر بــلاد المغرب يهوداً يختلفون منها إلى جميع الآفاق ومن أمثال أهل المغرب فاس بلد بلا ناس ... وكلنا دوئى فاس فى سفح جبل والنهر الذى بينهما مخرجه من عين فى وســط بــلد من عُسرة على مسيرة نصف يوم من فاس ... وأسّست عدوة الأندلســيين فى سنة ١٩٢هــ وعدوة القرويّن فى سنة ١٩٣ هــ فى ولاية إدريس ابــن إدريس ومات إدريس بمدينة ولِيلَى من أرض فاس على مسافة يوم من جانب الغــرب فى سنة ٢١٣هــ .. وبعدوة الأندلسيين تُفّاحٌ حلوٌ يعرف بالأطرابلسى جــليل حسن الطعم يصلح بها ولا يصلح بعدوة القرويين وسميدُ عدوة الأندلسيين أطيــب من سميد القرويين لحذقهم بصنعته وكذلك رجال عدوة الأندلسيين أشجعُ وأنجــدُ والجدُ من القرويين ونساؤهم أجمل من نساء القرويين ورجال القرويين أجمل مــن رجال الأندلسيين وفى كل واحدة من العدوتين جامعٌ مفردٌ ... وقال محمد ابن إسحاق المعروف بالجليلى :

يا عدوة القرويين التى كــرمتُ لا زال جانبك المحبوب ممطورا

ولا سَرَى الله عنها ثوب نعمته أرضٌ تجنبت الأنام والــزوار

وقال إبراهيم بن محمد الأصيلى والد الفقيه أبى محمد عبد الله :

دخلتُ فاساً وبى شوقُ إلى فــاس والحَيّنُ يأخذ بالعينين والراس

فلست أدخل فاساً ما حييت ولو أُعطيتُ فاسا بما فيها من الناس

وقال أحمد بن فتح قاضى ناهرت فى قصيدة طويلة:

اسلخ على كلّ فاسى مررت به فالعدوتين معاً لا تبقينْ أحــدا

قومٌ غذوا الّلؤم حتى قال قائلهم من لا يكون لئيماً لم يعش رَغدًا

ومــنها إلى سبتة عشرة أيام وسبتة أقرب منها إلى الشرق ... وقال اليكى بهجوا :

فراقُ الهمّ عند حروج فــــاس لكلّ مُلمَّة تختبى وبـــــأس

فأما أرضيا فأجـــــلّ أرض وأما أهلها فأحسنُ نــــاس

بلادٌ لم تكن وطأ لحـــــرٍ ولا شتملتُ على رجل مُواسى

وله فيهم ايضـــاً :

أطعن يابرّك من تلقى من النـــاس من أرض مصر على أقصى قُرى فاس

قومٌ يمصون ما فى الأرض من لطف مصّ الخليع زمانَ الورد للكلام

وله أيضاً فيهم :

دخلتُ بلدةَ فاس أسترزق الله فيهم

فما تيسر منهـــم أعَفتهُ فى بنيهـــم

وقــد نســب إليها جماعة من أهل العلم ... منهم أبو عمر عمران بن موســى بــن نجح الفاسى فقيه أهل القيروان فى وقته نزل بها وكان قد سمع بالغرب ورحل وسمع بالمشرق جماعة من العلماء وكان من أهل الفضل والطلب وغيرهم .

ويقول الدكتور محمد كمال شبانة :

ويعــزز هذا القول ما جاء عند صاحب كتاب " جنى زهرة الآس " . فى أخــبار فاس ، من قوله : " قال الحكماء : لا تستوطن إلا بلداً فيه سلطان حاضر ، وطبيب ماهر ، ونهر جار ، وقاض عادل ، وعالم عامل ، وسوق قائم .... " .

ويـــردف صاحب هذا الكتاب قوله ذاك بوصف أبناء فاس : " فلاعتداله اعـــتدل أهلـــه ، فسلموا من شقوة الروم ، وسواد الحبش ، وغلظ الترك ، وجفاء أهـــل الجـــبال ، ودمامة أهل الصين ، وكما اعتدلوا فى الخلق واعتدلوا فى الفطنة والذكاء والعلم .... " .

فلهذه القيمة التاريخية للمدينة ، وحفاظا على تراثها العربى الأصيل ، نرى أن فـــاس كانت نموذج المدينة الإسلامية فى مهرجان العالم الإسلامى الذى عقد فى لندن فى منتصف السبعينات. وقررت منظمة اليونسكو المشاركة فى إنقاذها كجزء مـــن التراث الإنسانى. ورصدت من أجل إنقاذها ٢٠ مليار دولار . كما وجهت نداء عالمياً يلح فى العمل على إنقاذها .

والآن ... مـــاذا يقول التاريخ فى صدد هذه المدينة تأسيساً وتخطيطاً ؟ يعـــزو بعض المؤرخين تأسيس مدينة فاس إلى إدريس الثانى ١٩٢ هـــ / ٨٠٨ م ، ابـــن إدريـــس الأول ١٧٢ هـــ / ١٧٥ هـــ ، اعتماداً على روايات قديمة، ولعل أول مـــن رددهـــا من جغرافى المشرق ابن حوقل فى القرن العاشر الميلادى [١] . ثم تـــولى تـــرديد هذه الرواية من لدن الجغرافيين . مثل ما جاء عند أبى عبيد البكرى الأندلسى، حين أورد وصفاً شاملاً لمدينة فاس . فقال : " إن هذه المدينة تتكون من مدينـــتين مختلفـــتين . ويحيط بكل منها أسوار ، كما يفصلها نهر شديد التياره وهو يسمى إحداهما "ضفة القرويين " والثانية " ضفة الأندلسيين، وتقع الأولى إلى الغرب من الثانية، كما يفرر فى وصفه هذا " أن المدينة الواقعة على ضفة الأندلسيين ، قد

---

(١) لقد جمع الأستاذ بلا شير المستشرق المعروف هذه الروايات فى مقال له بعنوان : فاس عـــند الجغـــرافيين العـــرب فى العصور الوسطى " المنشور فى مجلة : **Heuperis** هيبريس ج ، ١٨ ، سنة ١٩٣٤ م ، من صـــ ٤١ — ٤٨ .

تأسست عام ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م ، وأن مدينة " ضفة القرويين" قد أسست فى السنة التالية فى عهد إدريس بن إدريس " [١] .

ولقد جرى على هذا الوصف – من وجود مدينتين منفصلتين – جغرافيون قدامى . من أمثال اليعقوبى [٢] والمقدسى [٣] والإدريسى . وفى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى وجدت تفاصيل أكثر عن مدينة فاس فى المصنفات التاريخية المغربية، والتى تشير إلى ما ذكره المؤرخ ابن أبى زرع مؤلف " روض القرطاس" عن المدينة ، ونقلها عنه بعدئذ كل من الجزنائى فى " زهرة الآس " [٤]، وابن القاضى فى "جذوة الاقتباس " [٥].

وقد أورد المستشرق ليفى بروفنسال خلاصة رواية كتاب " القرطاسى " بالإضافة إلى المصنفات التى نقلت عنه ، مقتصراً على الجوانب المهمة فى الموضوع [٦] ، قال : "ولد إدريس الثانى فى أوليلى ، أو على الأصح وليلة ، فى كتلة زرهون الجبلية (جبل زرهون) ، بعد وفاة أبيه إدريس الأول بشهرين، وكان

---

(١) انظر : " جزائر بنى مزغنة " طبعة Desalre الطبعة الثانية ، الجزائر ١٩١١م ، صـ ١١٥ . طبعة أحدث بالجزائر أيضاً ١٩١٣ م ، صـ ٢٢٦.

(٢) انظر : " صفة المغرب " المأخوذة من كتاب "لهذا" لأحمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبى ، نشره M. J. Dr Gode طبعة ليدن ١٨٤٠م صـ ١٩ .

(٣) انظر : أحسن التقاسيم ، طبعة Dr Gode ليدن ١٩٠٦م صـ ٢٢٩ .

(٤) نشرها وترجمها وعلق عليها بأسم زهرة الآس ، وهى تتناول تأسيس مدينة فاس – طبعة الجزائر عام ١٩٢٣ م .

(٥) انظر : الطبعة الحجرية لهذا الكتاب فى فاس سنة ١٣٠٩ هـ .

(٦) انظر : الإسلام فى المغرب والأندلس تأليف ليفى بروفنسال ، ترجمة د./ السيد محمود سالم ، د./محمد صلاح الدين حلمى صـ ٧ – ١٠ .

موت أبيه حادثاً محزناً ، لوفاته مسموماً على يد رسول خاص كان قد أوفده الخليفة العباســى هارون الرشيد سنة ٩٧٥ م (٧٩١م)/١٧٧ هــ (٧٩٣م) . وقد تولى رشــيد عتيق إدريس الأول ورفيقه المخلص – مهمة تعليم الطفل حتى كبر ، وصار حاكمــاً سنة ١٨٨ هــ /٧٩٣م بإجماع قبائل البربر بمراكش – ثم مات رشيد بعد هــذا بقــليل . وفى نهاية السنة التالية – وهى سنة ١٨٩ هــ / ٨٠٥م – وجد إدريــس الثانى أفواجاً من الهجرات العربية تنثال عليه ، مما جعل بعضاً من مسلمى إفــريقية وإســبانيا تأتى إليه لتربط مصيرها بمصيره ، حتى ضاق مقامه بوليلة عن اســتيعاب هــذا الــنمو المطرد من السكان، بحيث قرر لذلك إنشاء مدينة تكون عاصمة للملكة ، وكان أن وجد فى سنة ١٩٠ هــ / ٨٠٦م ، مكاناً مناسباً، يقع على السفح الشمالى لجبل زلغ . وبدأ فعلاً فى بناء المدينة ، غير أن عاصفة عاتية ما لبثت أن حطمت الأساس ... والمعدات ، فوقف دولاب العمل .

وفى الســـنة الـتالية – عند مطلع سنة ١٩١ هــ /نوفمبر ٨٠٦ م – قرر إدريس الثانى الاستقرار بجوار الضفة اليسرى لنهر سبو **Sebou** على مقربة مباشرة من ينابيع خولان – الساخنة ، حيث استحضر المواد اللازمة للعمل، غير أن مخاوفة من عواقب الفيضانات الفصلية للنهر أجبرته على إهمال مشروعه .

أمــا المحاولــة الثالثة فإنها ستكون أوفر حظاً ، إذ يختار للمدينة أرضاً مغطاة بأعشــاب جافة متشابكة ومغمورة بالمياة الجارية، ويعبرها نهير تغذيه ينابيع مجاورة . وهذا الموقع لحظة عمير وزير إدريس الثانى واقترحه عليه ، وكان قد أشتراه المحتلون من بربر زناته المنتمين إلى أحزاب منافسة، والمعتنقين للإسلام والمسيحية واليهودية، وحتى لمذهب عبادة النار نفسه . ثم يأتى إدريس الثانى نفسه ليستقر فى هذا المكان. بل ويصدر الأمر ببدء إنشاء المدينة على التحقيق فى أول أيام شهر ربيع الأول سنة ١٩٢ هـــــ / ٤ يــناير ٨١٨م ، حيث يشرع فى بناء حى تخترقه ستة أبواب على

الأرض الواقعــة على الضفة اليمنى من النهير. أما فى الداخل فيبنى مسجداً بجانب الآبار على مقربة من معسكر إدريس الذى يحميه سور من خشب، وقد أصبح هذا الحى أحد أحياء المدينة ، وسمى بأسم "حى الأندلسيين" .

بعــد ذلــك بعــام على التحقيق – بحسب التوقيت الهجرى ، الموافق ٢٣ ديسمبر سنة ٨٠٨م – شرع إدريس الثانى فى تشييد حى جديد مواجه للحى الأول وقد أدى إنشاء هذا الحى إلى إغلاق أسواره لجزء صغير من مجرى النهير، كما أدى إلى امــتداده بشــكل ملحوظ على الضفة اليسرى من هذا النهير. ذلك الحى من المديــنة هــو الذى سوف يطلق عليه أسم " حى القرويين" الذى كان يشبه الحى المقــابل له إقامة ستة أبواب أيضاً . أما فى داخله فنجد الحاكم يأمر ببناء مسجد ما لبث أن أقيمت حوله أسواق وقيسارية وقصر .

ثم لا يلــبث هذا الإنشاء المزدوج الذى قام به إدريس الثانى إلا قليلاً حتى يمتلىء بالسكان بسرعة ظاهرة. وذلك بفضل التسهيلات العديدة التى منحها الأمير من وفدوا للإقامة فيه . وإن كان معظم النازحين إلى المدينة الشرقية من البربر . فى حــين أن أكثر الوافدين إلى المدينة الغربية من العرب. وبسرعة كبيرة تحتفظ بهؤلاء المســلمين وبطائفــة ملحوظة من اليهود . ويأخذ هذا التجمع أسم مدينة فاس ، ويســتقر فيها مع الأمير أسرته وحاشيته. ولم يكن فى ذلك الوقت قد تجاوز السابعة عشرة من عمره ، وظل بها إلى سنة ١٨٧ هـ (٨١٢م – ٨١٣م) ، ثم رحل بعد ذلك فى حملة إلى الأطلس الكبرى عاد بعدها إلى مدينة فاس.ثم غادرها سنة١٩٩هـ (٨١٤م – ٨١٥م) مــتجهاً إلى تلمســان. وبعــد هذا بثلاث سنوات عاد إلى عاصمته، التى استقبلت فى ذلك الحين حملة قوية من عساكر الأندلس ، ممن طردهم الحكــم الأول أمير قرطبة الأموى ، وذلك عقب موقعة الربض ، وسمح لهم إدريس الثانى بالقرار فى الحى الشرقى ، ومنذ ذلك الوقت لم يبرح إدريس مدينة فاس .

بعــد هذا بعشرة أعوام – فى سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨م – مات إدريس فى ظـروف غامضة فى فاس نفسها، أو فى وليلة ، تاركاً مدينته المزودة يانعة مزدهرة، كمـا ترك عند وفاته أطفالاً كثيرين، كان منهم على الأقل إثنا عشر ولداً تقاسموا أملاكه .

ويعـترف ليفى بروفنسال فى سياق هذا الحديث عن مدينة فاس، بأن رواية صـاحب "القرطاس " قد اشتملت على تفاصيل كثيرة عن كل مرحلة من مراحل إنشـاء المديـنة المزدوجة، وأن هذا المصدر ذو قيمة نادرة بين المصادر الأخرى فى الموضـوع، حيث ضم المعلومات الطبوغرافية فيما يتصل بتخطيط الحيين وأبوابهما، وهـى معـلومات تكاد فريدة فى بابها إذا ما أضفنا إليها روايات البكرى التى المحنا إليهـا ، ولهذه المعلومات قيمتها التاريخية أيضاً عند القيام بالموازنة بين خريطة فاس الحالية بنظائرها التى كانت لنفس الموقع طوال القرون الأولى من التاريخ الإسلامى.

كذلـك يضيف صاحب "القرطاس" إلى ما سبق أن مدينة فاس قد نمت من بعـد وترعرعت بحركة العمران والمرافق التى استلزمت ذلك، ولكن الحيين اللذين اشـتملت عـليهما المديـنة كان لكل منهما مصير لا يواكب مصير الأخر . نظراً للأضـطراب الذى سادهما على مر التاريخ ، فهما تارة متضادان، وتارة متفقان ، حـتى عـدت السنون وجاء زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين (٤٠٠ هـ – ٥٠٠هـ) ليحطم الحواجز التى تفصلهما ، ويوحدهما بصفة نهائية فى مدينة واحدة عام ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩م . ومنذ ذلك الحين بدأت تستقر هذه المدينة الكبرى فى العصـور الوسـطى، التى لم تلبث أن أصبحت مركز الإسلام فى المغرب الأقصى بمواردها العلمية والصناعية والتجارية.

وتجـدر الإشـارة إلى أن ضفة القرويين هى (مدينة القرويين) الضاحية التى عمـرها سـكان المغـرب الأدنى الذين وفدوا من القيروان، وحيث بنى بها جامع

القـــرويين الذى أسسته السيدة فاطمة الفهرية، وستخصص له حديثاً يليق بماله من أثر إسلامى عظيم .

ولقـــد تضـــاءل من فاس السياسى فى عصر كل من المرابطين والموحدين،، حيـــث أتخذ هؤلاء من مراكش عاصمة لهم حتى أتى بنو مرين فأعادوا لفاس مجدها الإدارى وأتخذوها عاصمة لهم .

وإلى جـــوار فـــاس القديمة توجد فاس الجديدة التى بناها الأمير أبو يوسف يعقـــوب بن عبد الحق المرينى عام ٦٧٤ هـــ / ١٢٧٥ م ، وقد أطلقت عليها عدة أسماء كالمدينة البيضاء ، والبلد الجديد، والمدينة الجديدة.

إن فـــاس منذ القديم تحتل مكانة مرموقة من بين مدن المغرب لما ذكرنا، من أتخاذهـــا عاصـــمة للمـــلكة فترات من الزمن . وعلى الصعيد الإسلامى فإنها تمثل واحدة من المدن الثقافية الإسلامية، لما اشتملت عليه من جامعة عريقة وهى "جامعة القرويين" كما سنفصل القول بعدئذ .

مـــن أثارهـــا القديمـــة — على جانب القرويين — مدرسة أبى عنان المرينى ، وســـاعتها الشمســـية الغـــربية، ومدرسة العطارين، ومدرسة المصباحية، ومسجد الأندلس ، وزاوية إدريس الثانى مؤسس المدينة حيث يوجد ضريحه ، وكلها منشأت على الطراز الأندلسى المغربى كأروع أثار فنية ما زالت تحتفظ بروائها .

وتتصـــل فـــاس القديمة بفاس الجديد عبر حدائق أبو الجنود والغناء، وتعتبر أبـــواب فـــاس الجديـــد غريبة الشكل. كباب الشاكمة، وباب الدكاكين، وباب المعمـــارين، وتوجـــد قبور المرينيين على مرتفع يشرف على المدينة الواقعة فى سفح جميـــل أخاذ ، فى جوف صدفة من الأسوار العتيقة، وقد دفن بالمدينة — وخاصة فى أطـــرافها — كـــثير مـــن علمائها البارزين وقوادها المشهورين. بالإضافة إلى بعض

اللاجـئين السياسيين أمثال لسان الدين ابن الخطيب التلمسانى المعروف ٧١٣هـ -- ٧٧٦ هـ ، والذى وصف فاس بقوله :

رعى الله قطراً ينبت الغنى

وأفاقة ظل على الدين ممدود

نعـم العـربى الأسـود بنى مرين ، ودار العبادة التى يشهد بها مطرح الجنة ومسجد الصابرين [1] .

أم القرى ، ومأم السرى ، وموقد نار الوغى ونـار القرى، ومقر العز الذى لا يهضم، وكرسى الخلافة الأعظم، والجرية التى شقها ثعان الوادى فما ارتاعت، والأبية التى ما أذعنت إذعانها للإيالة المرينية ولا أطاعت.

أى كلف وكلف ، ومتفق ومختلف، ومحاباة وزلف وقضيم وعلف ، وخلف عن سلف ، إنما الدنيا أو دلف [2].

---

(١) مسجد الصابرين : أحد معالم فاس الإسلامية ، راجـع : مجلة البحث العلمى ، (لسنة ١٢ – العدد ٢٤) يناير – أبريل ١٩٧٦ .

(٢) أبـو دلف : هو أبو القاسم عيسى بن إدريس العجلى أمير الكرخ وسيد الرمة، وأحد الأجـواد من الشعراء كان من رجال الرشيد وأبنه المأمون وقد عقد لـه الكـاتب ابـن طيفور جزاءاً خاصاً من كتابه (بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية) عنـد حديث عـن المـأمون وقد توفى أبو دلف عام ٢٢٦ هـ والشطر المذكور اقتباس من قوله

إنما الدنيا أبو دلف بين معزاه ومختصـره

فإذا ولى أبو دلف ولت الدنيا على أثره

سـألت عن العالم الثانى [1]، ومحراب السبع المثانى، ومغنى المغانى ، ومرقص النادب والغانى، وإرم المبانى [2]، ومصلى القاصى والدانى ، هى الحشر الأول والقطب الذى عليه المعول، والكتاب الذى لا يتأول .

بـلد المدارك والمدارس، والمشايخ والفهارس، وديوان الراجل والفارس ، والباب الجامع من موطأ المرافق ، ولواء الملك الخافق، وتنور الماء الدافق، ومحشر المؤمن والمنافق، وسوق الكاسد والنافق ، حيث البنى التى نظر إليها عطارد[3] فاستجناها، وخاف عليها الوجود أن يصيبها بعينه الحسود، فسترها بالغور وأخفاها[4]، والأسواق التى ثمرات كل شىء إليها قد جبيت، والموارد التى اختصت بالخضر وحبيت، والمنازة المخطوبة ، وصفاح الخلج المشطوبة، والغدر التى منها أبو طوية[5] .

بلد أعارته الحمامة طوقها

وكساه – ريش جناحه – الطاووس

فكأنما الأنهار فيه مدامة

وكأن ساحات الديار كئوس[6]

---

(1) ويقصد بالعالم الأول " الأندلس " يومئذ .

(2) إرم المبانى : علم المبانى .

(3) عطارد : نجم سيار قريب من الشمس .

(4) التعبير كناية عن موقع المدينة فى السفح المنخفض ، وهو حسن تعليل رائع لوقاية المدينة من عين الحسود بموقعها هكذا .

(5) أبو طوبة : الريح الطيبة .

(6) البيتان من قصيدة للشاعر ابن اللبانة يصف فيها جزيرة ميورقة .

أجـــتمع بهـــا مـــا أولده سام وحام ، وعظم الالتئام والالتحام، فلا يعدم فى مسالكها زحام، فأحجارها طاحنة ، ومخابـــــــرها شاحنة، وألسنتها - باللغات المختـــلفة - لا حنة ، ومكاتبها مائجة ، ورحابها متمائجة ، وأوقاتها جارية : اللمم فيها - إلى الحسنات وأضدادها - متبارية ، إلى أخر ما وصفها به . . . [1].

جامع القرويين

يـــروى المؤرخون أن هذا المسجد كان فى الأصل جامعاً صغيراً يطلق عليه " جـــامع الشـــرف " وقد إقامه إدريس الثانى إبان حكمه فى " عدوة القرويين" وظل المسجد الصغير على حاله حتى عام ٢٥٤ هـــ. حيث كان فى فاس رجل من عرب القـــيروان يدعـــى محمد بن عبد الله الفهرى ، ثم وافته منيته ، وترك لابنتيه فاطمة ومريم ثروة كبيرة، فأهتمت فاطمة بجامع الشرفاء، وأنفقت جل نصيبها - من تركة والدهـــا - فى تجديد بنائه وتوسعته، فتضاعف حجمه، وأقيمت له الصومعة التى مـــا تزال على حالها من التخطيط حتى يومنا هذا ، بعد أن أعيد بناؤها على نفس الطـــراز عـــندما جرى توسيع الجامع عام ٣٤٤ هـــ وتبلغ مساحة كل ضلع من أضلاع قاعدتها خمسة أمتار، بينما يبلغ ارتفاعها ٢٠ متراً ، وهى مكسوة بالقيشانى (الزليج) تعلوها قبة صغيرة .

يقـــول عبد الرحمن المراكشى فى شأن المدينة والمسجد، منوها فيهما بحضارة قرطـــبة والقـــيروان - حيـــث سكنها القرطيبون (أهل الربض) كما قدم إليها فى مرحلة أخرى جماعة من القيروان واقاموا بها .

---

[1] انظر : معيار الأختيار ، فى ذكر المعاهد والدياره ، لابن الخطيب تحقيق ودراسة وترجمة للإسبانية صـــ ٧٨ - ٨١ نشر المعهد الجامعى للبحث العلمى ، الرباط ١٩٧٧ م .

مدينة فاس هي حاضرة المغرب ، وموضع العلم منه ، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة، عندما كانت قرطبة حاضرة الأندلس والقيروان حاضرة المغرب ، فلما أضطرب أمر القيروان وأمر قرطبة رحل عن هذه وهذه من كان فيهما - من العلماء والفضلاء فراراً من الفتنة فنزل أكثرهم مدينة فاس ... ومازلت تسمع المشايخ يد عونها "بغداد المعرب" وليس بالمغرب شيء إلا وهو منسوب غليها، وموجود فيها ومأخوذ منها، لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب ... " .

يشتمل المسجد حالياً على صحن مغطى مقوف يرتكز على أعمدة تعدادها ثلاثمائة وخمسة وستون بعدد أيام السنة. تزينها الأقواس ذات الإشكال المختلفة. فبعضها ذات عقد واحد بينما البعض الآخر متضاعف العقود . وتوجد عند القبة الرابعة أقدم لوحة فى الجامع إذ يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثالث الهجرى . وقد سجل عليها أن السيدة فاطمة الفهرية تطوعت ببناء الجامع ، وأن الأساس قد حفر فى أول رمضان سنة ٢٤٥ هـ .

وهناك لوحة أخرى بين افريز القبة المربعة. قد نقشت عليها الوثيقة التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بعمله عن أمر الملك العادل ، الآمر بالخير والفضل ، أمير المسلمين، وناصر الدين ، على بن يوسف بن تاشفين ... وكان إتمام ذلك - بحمد الله وعونه وتوفيقه - فى شهر رمضان المعظم من سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، ومعنى هذا أنه قد أضيفت على المسجد زيادات هامة وكبيرة بين عامى ٥٢٨ هـ و٥٣٩ هـ وصنع للجامع محراب ومنبر جديدان وكما أعيد بناء الأبواب التى تعتبر تحفة فنية رائعة، فقد كسيت الأبواب الخشبية بالنحاس ، وأقيم على كل باب قبة صغيرة، ولكل باب من هذه الأبواب الثمانية عشر مقرع

ذو حـــلقة معدنيـــة كـــبيرة. وتـــزين واجهة الأبواب صفوف من المسامير ذوات الرؤوس.

هذا ، ويتوفر المسجد على خمسة مصادر للمياة، ومنذ القدم والمياة تجرى فى الجامع طوال العام . كما نعمه فى كافة أرجائه الإنارة الكافية، فقد كانت تكثر فيه السـرج، وتغـــلظ الفتائل ، لأن فى الإضاءة بهاء للدين ، وأنا للمجتهدين ، ونفيا لمكانية الريبة، وهداية للسابلة، وتتريها، لبيوت الله من وحشة الظلام .

ولذلـــك ترى فى صحن الجامع الثريات الكبيرة التى تتفرق فى كافة أرجاء المســجد، وفى الوســط ثــريا ضخمة وإلى جانبها ثريا أصغر، يروى أنها كانت فى الأصــل ناقوســاً حمل من إحدى المعارك التى جرت فى الأندلس، وكسى الجرس بثلاث حــاملات للقناديل، ونقش عليه ، صلى الله على سيدنا محمد ... الملك لله ... والعـــزة لله ... وبالمسجد بعض من الأجراس الأخرى التى حولت إلى ثريات وكانت قد نزعت – بأيدى الجنود المسلمين – من أعالى الكنائس القشتالية شمال الأندلس .

ويلاحظ أن منبر المسجد قد صنع من خشب الصندل والأبنوس والجوز. وأن نقوشة مطعمة بالعاج، وبجوانبه زخارف وتوريقات تخلية دقيقة، وهو كغيرة من معظـــم المنابر المغربية – متحرك ، يخرج عند الخطبة فى يوم الجمعة ، ثم يعود ، بعد ذلك ويختفى داخل الجدران طيلة الأسبوع .

هـــذا ومـــا أن أكتمل بناء الجامع فيما مضى حتى بدأ يؤدى رسالته، إلى جـــانب المساجد الكثيرة التى تغطى بها مدينة فاس، من حيث كونها مراكز لتثقيف المســلمين، وتبصيرها بأمور دينهم ودنياهم شأن معظم مساجد المدن الإسلامية فى المشـــرق والمغرب ، والتى لم تكن وظيفتها قاصرة على العبادة ليس إلاء بل تكوين المسلم الصالح تكوينا شاملاً للعبادات والمعاملات .

وطبيعى أنه لم يكن فى الحسبان عند إنشاء هذا المسجد أنه سيكون له شأن عظيم ، وأنه سيصير بمرور الأيام سجلا علمياً حافلاً لأعداد من العلماء المغاربة وسواهم من الوافدين من عدة أقطار لينهلوا من ينابيع المعروفة ولا سيما من القارة الإفريقية بحكم صلة الجوار والقربى .

وتمضى فترة على افتتاح جامع القرويين ، ويعمر بالمؤمنين لأداء الصلوات شيئاً فشيئاً ، ثم أخذت الدروس الدينية طريقها إليه بفضل طائفة من العلماء والأساتذة أثناء النهار وبين العشاءين ، وذلك فى علوم التفسير والحديث والفقه، وكذا علوم اللغة العربية، فهكذا استدارت الحلقات العلمية للدروس فى هذه المواد. وأضحى المسجد منذ ذلك الحين مركزاً علمياً بارزاً بحيث استقطب العلماء والطلاب من معظم مساجد المغرب، حتى صارت له القيادة فى هذا الميدان العلمى والثقافى .

ولقد حظى هذا المسجد العلمى بعناية ملوك المغرب الذين توالوا على الحكام فقد اضافوا غليه فى بناياته ووسعوا فى أرجائه، وذلك تمشياً مع تطور رسالته ونموها، ولم تبخل دولة – من الدول التى حكمت المغرب – عليه فى إمداده بالوسائل الكفيلة بمواصلة رسالته العلمية السامية، ومن ذلك إلحاق خزانة متسعة ضمن العديد من الكتب العلمية، تتصدرها المئات من المخطوطات الثقافية، لعصور توالت ودول انتفضت بين المغرب والأندلس، فى شتى فنون المعرفة ، بحيث أضحت هذه الخزانة فى مجال المخطوطات –كماً وكيفاً – من بين أمهات الخزائن فى العالم .

وتروى المؤرخات المغربية خاصة أن قاضى القضاة بفاس كان يتولى إدارة شئونها بحكم أنه كان بمثابة شيخ الجامع الأكبر، فقد كان يشرف على اختيار الأساتذة ، ووضع الشروط الواجب توافرها، فى راغبى الدراسة من الطلبة، كما يحدد المواد الدراسية، والمؤلفات العلمية التى هى مادة التدريس ، بالإضافة على

إشـــرافه على منح الإجازات العلمية بالاتفاق مع العلماء المختصين، وتلقيه العطايا مادية وعلمية، للأنفاق على العلماء والطلبة .

لقـــد كان مسجد القرويين ملتقى فكرياً لعديد من الشيوخ الفقهاء الذين عاصروا المراحل الأولى من تاريخه، حيث كانوا يمارسون مهمة الوعظ والإرشاد لا يبـــتغون مـــن وراء ذلـــك سوى الأجر والثواب عند ربهم، بالإضافة على بعض الـــدروس العلمية أحياناً، وهكذا أضحى المسجد فى العصور المتوالية يمج بكثير من العـــلماء المرموقين من داخل المغرب ومن الأقطار الإسلامية المجاورة خاصة، حبا فى العلم والتدريس، واستجابة لرغبة بعض ملوك المغرب، الذين مدوا يد العون لهؤلاء العلماء، لا سيما فى الوقت الذى كانت فيه مدينة فاس العاصمة الإداريـــــــــة (عصر المرينيين) وحيث هيأت للفقهاء الوافدين وسائل الإقامة إلى جوار القرويين ، فأضـــحوا متفرغين للاشتغال بالعلم والتدريس، وعملوا على رقى النهضة الثقافية بالمغرب، مما كان فى أثر واضح فى ازهار جامع القرويين والارتقاء بمستواه التعليمى.

ولم تكـــن عـــناية أولى الأمـــر بالمغرب نحو القرويين قاصرة على الفقهاء والمدرســـين سواء – منهم المغاربة أو الوافدين ... بل شملت هذه العناية – كما أشـــرنا – طـــلاب العـــلم المواطـــنين والقادمين من الأقطار الإسلامية، وكان من الضـــرورى بالـــتالى – وقد تضاعفت أعدادهم بمرور السنين – أن تهيأ لهم اسباب المعيشـــة ووسائل الدرس والتحصيل . وقد كان توفير السكنى لهم قرب الجامع من أهـــم ما كان يشغل بال القائمين على الأمور العلمية بفاس . وهكذا بدأت فكرة إنشاء المدارس العلمية بفاس ، وهكذا بدأت فكرة إنشاء المدارس العلمية المشتملة عـــلى دور السكنى فى الأحياء القريبة من القرويين منذ عصر المرابطين . ففى عام ٦٧٠ هـــ أســـست مدرســـة الحلفاويين . وفى عام ٧٢٣ هـــ أنشئت مدرسة العطـــارين ، ثم المدرسة المصباحية عام ٧٤٥ هـــ ، والمدرسة العنانية . أما فى المدن

المغـــربية الأخرى فقد أقيمت مدرسة ابن يوسف بمراكش فى عهد المرابطين وكانت هـــذه المـــدارس فى مجموعهـــا تشتمل على الخزانات العلمية التى تجمع العديد من المراجع والمصادر فى مختلف العلوم .

نظام الدراســـة

لم تكـــن الدراسة فى القرويين فى بداية عهودها ذات نظم معينة أو شعب متخصصــــة، بـــل كـــانت تتناول سائر الفنون المعروفة يومئذ، ومعظم العلوم التى تتـــناولها الكـــليات الجامعيـــة اليوم . وبالتالى فقد كانت تدرس بها العلوم اللغوية والأدبيـــة، والعـــلوم الإنســـانية، والعـــلوم الرياضية والطبيعية، ولكن الدراسات الإســـلامية هـــى الـــتى كانت تختص بقدر أكبر، وتحظى بأهتمام أعظم، كالتفسير وعـــلومه، والحديـــث وعلومه ، وأصول التشريع الإسلامى ، وعلوم فقه المذهب المالكى، مع اعتماد المؤلفات الأصلية والمشهورة فى المغرب والمشرق .

وعندما يلتحق الطالب بهذه الجامعة فإنه كان عليه أن يدرس عدة سنوات قـــد تصـــل عـــلى عشـــر أو أكـــثر ، يلازم فيها تلقى العلم على مختلف العلماء المتخصصـــين ، وخلالهـــذه الدراسة يتعرف الأساتذة على طلابهم النابغين ، الأمر الـــذى يخولهـــم — بعـــد فترة من الوقت يختبرون خلالها معلوماتهم — أن يمنحوهم الإجـــازات العـــلمية طبقاً لتبريزهم وتفوقهم، ويقام حفل خاص توزع خلاله تلك الإجـــازات الـــتى تجيز لهم حق التدريس أو شغل الوظائف الرسمية كالقضاء .. والعدالـــة .. وأحياناً بعض المناصب الرئيسية كالوزارة .. أو السفارة ، حسب الاستعدادات والخبرات العامة فوق الحصول على الإجازة العلمية .

أمـــا الطلبة الوافدون من الأقطار الإسلامية الأخرى، فإنهم بحصولهم على تلك الإجازة يصبحون فى وضع يمكنهم من أداء واجبهم نحو أوطانهم، فيعودون إلى بلادهم لنشر الدين وتقلد الوظائف التى تناط بهم فى حدود إمكانياتهم العلمية .

وتجدر الإشارة – بهذه المناسبة – إلى أن جامعة القرويين تضم خزانة علمية كبرى، بحيث تغطى احتياجات العلماء والمدرسين، وتواكب النمو العلمى للطلاب والباحـــثين، من مصادر رئيسية هامة، ومراجع فى شتى ألوان المعرفة، ولاشك فى أن العناية التى كان يوليها ملوك المغرب للقرويين كانت تتناول – بطبيعة الحال – تلك الخـــزانة التى أوقف عليها هؤلاء الملوك ووزرائهم الغديد من الكتب ، إلى جــــانب مـــا كــــان يجـــلب مـــن هذه المصادر من بلاد العالم، حتى غصت الخزانة بآلاف المخطوطات النفيسة التى يقل نظير بعضها فى المكتبات الوطنية فى الخارج، حتى قيل إن تعـــداد هـــذه الكـــتب يكاد يبلغ ثلاثين ألفاً بين علوم وفنون وآداب لمختلف المؤلفين فى العصور الإسلامية.

من تقاليد القرويين

إن طـــريقة الدرس والبحث فى ساحة القرويين تتميز ببعض الخصائص ، وذلك فيما يتصل بطريقة تلقى الدروس ، حيث كانت تعقد الحلقات الدراسية من حول الأستاذ الذى يعلوها بمنصة خاصة ، وفيها يطلب من بعض تلاميذه أن يفتتح الـــدرس بالبسملة، ثم قراءة النص المراد شرحه فى المادة ، وبعدها يبدأ الأستاذ فى الشرح ، وأخيراً يطلب من أحد التلاميذ قراءة ما ورد من نص فى الكتاب المقرر .

وخـــلال هـــذه القراءة يستطرد الأستاذ مع الطلاب بالتعليق والتوضيح أيضـــاً، والاستشـــكال فى بعض المواطن أحياناً، وتلك هى الطريقة التى كان يسير عـــليها "الجامع الأزهر " فى تلك العصور وهى الطريقة المثلى لهضم المادة والأتيان على جوانب البحث فيها ، بما يعمق المعرفة ويؤصلها لدى طالب العلم .

وهكـــذا يـــبدو كيـــف اســـتوفى جامع القرويين أسباب نموه وازدهاره، وأستكمل رسائل نهضته منذ عهد مبكر ، وأثناء فترات متتالية، ومراحل متواصلة، وخاصـــة مـــنذ عهد مبكر ، وأثناء فترات متتالية، ومراحل متواصلة، وخاصة منذ عهـــد الدولة المرينية ، حيث توافرت له عناصر الجامعة، وثبتت له الصفة الجامعية، وتحققـــت له الشخصـــية المعنوية ، وأصبح معها مؤسسة علمية أكاديمية، تذكر فى المشـــرق وغـــيره من البلاد كما تذكر فى المغرب ، وتضاهى مثيلاتها من الجامعات الإسلامية المشهورة .

وأســـتمرت جامعة القرويين عامرة تواصل سيرها الحثيث ، متخطية كل الصـــعاب ومـــتحدية كل العقبات، تؤدى رسالتها العلمية والحضارية من جيل إلى جيـــل، محافظة بذلك على التراث الإسلامى، وأصالة الأمة المغربية، فانجبت العلماء الأفـــذاذ والشيوخ الكبار الذين علموا وكتبوا ودرسوا وألفوا ممن تزخر بهم كتب تـــاريخ المغـــرب وتـــراجم رجاله، وتذكرهم الأجيال الماضية والحاضرة، وتخلدهم مؤلفـــاتهم القـــيمة ، الـــتى كـــانت وما تزال أهم المصادر والمراجع فى البحوث والدراسات الإسلامية [١].

---

[١] منهل جامعة القرويين : إصدار مديرية التعليم الأصيل بالمغرب (١٩٧٦ م) .

جامعة القرويين حديثاً

حظيـــت هـــذه الجامعة ضمن قطاع التعليم فى المغرب بعناية أولى الأمر ، لتكتســـب مظاهـــر واضـــحة التقاليد ، ولتبرز لها خصائصها الجامعية بما يواكب حضارة العصر الحديث جهد الطاقة وقدر الاستطاعة، وقد كان أبرز مظاهر التطوير والـــتجديد هو التنظيم الذى أدخل على سير الدروس لتلائم فى مجموعها مستويات الطلاب عامة، وهكذا نرى السلطان المولى محمد بن عبد الله، الذى أصدر منشوراً عـــام ٢٩٣ هـــــ / ١٧٨٩ م ، فى صدد هذه الجامعة ، وخصص لتدريس كتب معينة بها وتقرير مواد خاصة للدراسة، ثم تلاه السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام، الذى وجه خطاباً بتاريخ ١٢ محرم ١٢٦١ هـــ إلى قاضى القضاة بفاس وفيه يشير عـــليه بـــأن يوجـــه أنظار المدرسين بالقرويين إلى أن يعملوا ما فى وسعهم لمصلحة الطلاب ، وتيسير مهمتهم العلمية .

أمـــا السلطان المولى يوسف فقد طلب من العلماء فى رمضان ١٣٣٠ هـــ (سبتمبر ١٩١٢ م) عقب توليه السلطة أن يعدوا لـــه تقريراً حول إضافة بعض المـــواد فى الدراســـة، كما أمر بتأسيس " مجلس علمى " توكل إليه أمور الجامعة ، ويضم طائفة من علماء القرويين المتمرسين بالشئون العلمية والإدارية.

وفى ٢٠ جمـــادى الأولى ١٣٣٣ هـــــ (١٩١٥/٤/٥م) وبعد سنة من تأســـيس المجلس العلمى وردت رسالة مخزنية تحمل الأمر بجعل الانخراط فى صفوف العلماء متوقفاً على النجاح فى الامتحانات واجتياز مباراة .

وفى ١٦ ربيع الثانى ١٣٤٦ هـــ (١٩٢٧/١٠/١٣م) صدر ظهير يفيد أن رواتـــب العـــلماء قـــد زيد فيها، وأنه قد تأسس بالرباط مجلس أعلى برئاسة الســـلطان المـــولى يوســـف، وعضـــوية الصدر الأعظم، ووزير العدلية والأوقاف

والحـاجب، وتقضى بتعيين أمين ورقيب ، وكان يعد المجلس بمثابة هيئة عليا تراقب المجلس العلمى بفاس [1].

وهكذا ... واصلت جامعة القرويين رسالتها فى حدود الإمكانيات التى أتاحتها لها الظروف المعاصرة، وخاصة فى مرحلة الاستعمار الأجنبى ، إلى أن قيض الله لهـذه البـلاد أن تـنال استقلالها عام ١٩٥٦ م بقيادة الملك محمد الخامس ، والذى رأى أن يعيد النظر فى شئون الدراسة بجامعة القرويين ، بحيث تستقطب أكبر عدد من طلاب العلم من الداخل والخارج ، ولتسير الجامعة وفق مقتضيات العصر الحاضـر ، على أسس منهجية فى دراستها، وحتى تنتهى تلك الدراسات بمؤهلات علمية تتعادل مع مؤهلات الجامعات المناظرة، ليمكن لخريجها أن يشقوا طريقهم إلى الوظائف المناسبة فى الدولة .

مراحل التطوير للجامعة قبل الاستقلال

وفى هـذا الصـدد صدرت عدة ظهائر وقرارات تتعلق بإدخال التنظيم الجديد على جامعة القرويين .

١ - ففـى ٢٦ ذى الحجـة ١٣٤٨ هـ (٢٥ مايو ١٩٣٠ م) صدر ظهير شريف يعين المدرسين، ويرتبهم ثلاث مراتب وينفذ لهم رواتبهم .

٢ - وفى ١٠ ذى القعـدة ١٣٤٦ هـ (٢٦ مارس ١٩٣١ م) صدر ظهير شـريف ، يسـند تعيين الفنون والعلوم المدروسة والتأليف التى تدرس بها للمجـلس الأعـلى، إلى جانب من ضابط بتنظيم التعليم ، وتحسين طرقه بالقرويين .

---

[1] منهل جامعة القرويين - إصدار مديرية التعليم الأصيل بالمغرب ١٩٧٦ م .

٣ - وفى ١٠ ذى الحجـة ١٣٤٢ هـ (١٤ مايو ١٩٣١ م) فتحت إدارة المجـلس العلمى أبوابها فى وجه الطلاب الذين يريدون الانخراط فى النظام، ودشنت الدروس النظامية فى ٨ شوال ١٣٥٠هـ (١٦ فبراير١٩٣١م) .

٤ - وفى ١٠ ذى الحجـة ١٣٥١ هـ (٣١ مارس ١٩٣٣ م) صدر الضابط المسنون فى أحد عشر فصلاً ، يتضمن تقسيم الدراسة إلى ثلاث مراحل :

أ - ابتدائية ، ومدتها ثلاث سنوات .

ب - ثانوية ، ومدتها ست سنوات .

ج - عاليـة ، ومدتهـا ثـلاث سنوات ، وتحتوى على شعبتين شرعية، وأدبيـة ، وتنـتهى بتخويل المتخرج شهادة " العالمية" وهى أعلا شهادة كانت تمنحها جامعة القرويين .

" كما نص هذا الظهير على تحديد المواد المدروسة، وتعيين الكتب المقررة، وعـلى الزيادة فى عدد العلماء المدرسين. ورفع رواتبهم، وتحديد مهمة المراتب ، والحفـل الأسبوعية والفصلية ، ونظام الامتحانات، والوظائف التى تخولها مختلف الشـهادات، إلى غـير ذلك من التنظيمات التى كانت من أعظم مكاسب جامعة القـرويين فى عهد محمد الخامس، وأساساً للمكاسب والإصلاحات التى تمنعت بها هذه الجامعة بعد الاستقلال [1] .

وما أن أشرق فجر الحرية على البلاد، حتى حظيت القرويين بعناية خاصة من ساكن الجنان الملك محمد الخامس، حيث كان وعد بمزيد من الرعاية والاهتمام بهـا، تقديراً منه لهذه الجامعة العتيدة، والتى حفظت للبلاد دينها الإسلامى ولغتها العـربية فيما انصرم من العصور، وهكذا تفضل بزيارة خاصة لمسجد القرويين ،

---

[1] منهل جامعة القرويين - إصدار مديرية التعليم الأصيل بالمغرب ١٩٧٦ م .

وخطـــب فى طلابها وعلمائها مشيداً بدور الجامعة الحضارى، ومؤكداً العزم على مواصـــلة إصلاحها ورعايتها، وذلك بما يكفل لها أداء رسالتها على أحسن وجه، وقد استهل هذا النظر الكريم بتأسيس لجنة عليا للسهر على إصلاح التعليم بصفة عامـــة، وجامعـــة القرويين بصفة خاصة، كما خصصت لها غدارة لرعاية شئونها بـــوزارة الـــتربية الوطـــنية ، بحيث تشمل معاهدها الابتدائية والثانوية إلى جانب كلياتها، وخصصت لكل هذا الأبنية المناسبة ، وبذلك انتقلت الدراسة من المسجد والجوامع التابعة إلى مدارس حديثة مجهزة علمياً ، مما كان له أكبر الأثر فى النهوض بالتعليم الدينى فى المغرب الحديث .

وهـــذا وتدخل فى نطاق القرويين للتعليم العالى كليات ثلاث على النحو التـــــــالى :

١ – كلية الشـــــريعة ، ومقرها مدينة فاس .

٢ – كلية أصول الدين ، ومقرها مدينة تطوان .

٣ – كلية اللغة العربية ، ومقرها مدينة مراكش .

وقـــد نـــالت جامعة القرويين العناية اللائقة بها فى وقتنا الحاضر من لدن جلالـــة الحســـن الـــثانى ، حيث كانت فى حاجة إلى المزيد من الرعاية والاهتمام. وذلك حفاظاً على الثقافة الإسلامية، ونشراً لها فى طول البلاد وعرضها .

وفى الخطـــب السامية لجلالته ، والظهائر الملكية . والمراسيم الوزارية التى تســـتهدف – الـــنهوض بجامعـــة القـــرويين ومعاهدها . وتزويدها بالإمكانيات الضـــرورية، وإعادة النظر فى برامجها ومناهجها، وتحديد الدراسات التى تختص بها كـــل كلية من كليات هذه الجامعة . مما يجدد شبابها، ويعطيها نفساً جديداً يساعد عـــلى تخريج العلماء المتضلعين فى علوم اللغة العربية، والفكر والحضارة والشريعة

الإســـلامية، وعـــلى بعث حركة ثقافية ونهضة علمية شاملة ، تنعكس أثارها على التكوين المتين والتثقيف، لتؤدى الجامعة رسالتها التاريخية داخل المغرب وخارجه .

التنظيم الحديث لجامعة القرويين

وفى هذا الصدد كان جلالته قد أصدر ظهيراً شريفاً بتاريخ ١٢ رمضان ١٣٨٢ هـــ (٦ فـــبراير ١٩٦٣م) بإعادة تنظيم جامعة القرويين تنظيماً جديداً يتلاءم وروح العصر الحديث شكلا وتربوياً بما يحقق النهوض بهذه الجامعة. ويكتمل معـــه إطارهـــا العام بمختلف الكليات ، ويستجيب لتحقيق الغاية المنشودة منها ، بـــتكوين عـــلماء متخصصـــين فى فروع العلم والمعرفة، يشغلون وظائف عامة فى الدولة، يقومون بخلق نشاط فكرى وثقافى وحركة علمية فى هذا المضمار .

وقد تضمن الظهير المذكور العناصر التى اقتضاها إصلاح الجامعة، وإعادة تنظيمها من جديد، فحدد اختصاصاتها وأهدافها ، وأعطاها صبغة المؤسسة العمومية المتمـــتعة بالشخصية المعنوية، كما حدد الكليات التى تشتمل عليها الجامعة، وهيئة التســـيير التى يمثلها مجلس الجامعة، ووضعية رجال التعليم بها ، واختصاصات كل كلية، والإجازات الوطنية التى تسلمها.

وقـــبل أن ننهى الحديث عن جامعة القرويين يطيب لنا أن نقطف فقرات ممـــا ســـطره بعض الكتاب الأوروبيين ، الذين نوهوا بالدور الثقافى والإنسانى لهذه الجامعة :

١ – فقـــد كتب ديلفان فى كتابه " فاس وجامعتها" يقول : مدينة فاس دار العلم بالمغرب ، التى بها جامعة القرويين ، تعد أول مدرسة فى الدنيا .

٢ - وكـــتب المستشرق الروسى " جوزى كريستوفيتش " مقالاً ، ترجمته مجلة الهــلال المصرية (أبريل ١٩٥٦ م) قال : فإن أقدم كلية فى العالم ليست فى أوروبــا - كمــا يظــن - بــل فى إفريقيا فى مدينة فاس ، فقد تحقق بالشــواهد التاريخية أن هذه المدرسة كانت تسمى " جامعة القيروان " - ويقصــد القرويين - والتى لست فى الجيل التاسع للميلاد ، وعليه ليست فقــط أقــدم كليات العالم ، بل هى الكلية الوحيدة التى كان يتلقى فيها الطلــبة العــلوم الســامية فى تــلك الأزمنة، حين لم يكن فكان باريس وأكســفورد وبولونيــا يعرفون من الكليات سوى الإسم، فكان الطلبة يــتواردون على كلية (القرويين) من أنحاء أوروبا وبريطانيا فضلاً عن بلاد العــرب الواسعة للأنخراط فى سلك طلابها وتلقى العلوم باللغة العربية مع الطلبة الطرابلسيين والتونسيين وغيرهم، ومن جملة من تلقى علومه - فى هــذه المدرسة من الأوروبيين - جيربرت أو البابا سيلفستر، وهو أول من أدخل إلى أوروبا الأعداد العربية، وطريقة الأعداد المألوفة عندنا بعد أن - أتقنها جيداً ... " .

٣ - وذكر الكاتب البريطانى روم لاند أنه : شيد فى فاس فى أيامها الأولى جامع القرويين ، الذى هو أهم جامعة وأقدمها ، وهنا كان العلماء منذ ألف سنة يعكفــون عــلى المــناظرات الفلسفية والأبحاث الدينية، وكان المثقفون يدرسون التاريخ والعلوم والطب والرياضيات ، ويشرحون أرسطو وغيره من مفكرى الإغريق، وقد تطورت على نحو ما حدث فى جامعة السوربون الــتى كــانت أول أمرها تعطى بعض الدروس فى اللاهوت، يلقبها أحد الرهبان فى حجرة قريبة من نوترادام فى باريس، ثم اقام أحد المحسنين منزلاً

لإيـــواء الطلبـــة الفقـــراء، وهكـــذا كان الحال فى جامعة أوكسفورد وسلامنكاه.

فلهذا حرصت كل الحرص على تقديم عملاً جديداً فى سلسلة ذخائر العرب الـــتاريخية إلا وهو كتاب " زهرة الأس فى بناء مدينة فاس " المعروف بتاريخ مدينة فـــاس للإمام الجزنائى المتوفى أواخر القرن الثامن الهجرى وقد أغفلته كتب التاريخ والســـير فى الترجمة له فهو مجهول المولد والوفاة . إلا أن الكتاب يحتوى على تاريخ المغـــرب مـــنذ الحكـــم الرومانى حتى عصر المرابطين والموحدين بطريقة تبين مهارة وتفـــوق الكـــاتب من الناحية التاريخية والأثرية واللغوية والفقهية. فكتاب صورة مصـــغرة لـــتاريخ مصـــر من الأمصار الإسلامية وهى مدينة فاس صاحبة الحضارة العـــريقة فهـــى لا تقـــل أهمية عن القيروان ودمشق وبغداد بل أحياناً تفوق هذه الأمصـــار فى بعـــض الفترات خلال العصور التاريخية المختلفة. ومن هنا كان من الواجـــب علينـــا إبراز تراثنا المجهول حتى يستفيد عالمنا بعظمة الحضارة الإسلامية، فالكـــتاب عبارة عن موسوعة مختصرة عن مدينة فاس على مر العصور الإسلامية. وقد اعتمدت فى إصدار وإخراج هذا العمل على عدة طبقات قديمة ومخطوطات فى دار الكـــتب المصرية ومعهد المخطوطات العربية بالقاهرة مع وضع بعض التعليقات والتحقيقات وعمل فهارس وكشافات عامة لتسهيل على الباحثين والدارسين .

واسأل الله العون والمغفرة والله خير معين """"

مقدمه

مديحه الشرقاوى

١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م

مقدمة المؤلف



وصـــلى الله عـــلى سيدنا محمد وآله ، الحمد لله الذى جعل الحمد فاتحة الكـــتاب ، وأول كلام الخلق يوم الحساب ، وصلى الله على سيدنا محمد المنتخب من لباب الألباب والرضى عن آله وصحبه فأكرم بهم من أهل وأصحاب وبعد :

يحتوى هذا الكتاب على بابين :

الباب الأول : فى ذكر من أسسها من الأدارسة الحسنيين .

الباب الثانى : فى ذكر من أدارها بالأسوار وذكر جوامعها ومـــا إنـــتهت إليه من الدور والحمامات وما جاء من الثناء عليها وعلى ساكنها من العلماء المرضيين .

الباب الأول

فى ذكر من
أسسها من الأدارسة الحسنيين

وهـــذا الـــباب يستدعى الكلام على فضل الإقليم وحد اصقاعه وحكم أرضه، وأول من أفتتحه وسبب قدوم ولى الله إدريس[1] ، وذكر عقبه الذين أسسوا فاساً إلى غير ذلك مما يتعلق به من التنبية عليه والتذكير بما انصاف من الأمور إليه .

أما فضله فقد روى عن سفيان بن عيينة [2]عن النبى صلى الله عليه وسلم

---

(1) هـــو إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن على بن أبى طالب مؤسس دولة الأدارســـة فى المغرب وإليه نسبتها، أول ما عرف عنه أنه كان مع الحسين بن على بن الحسن المثلث فى المدينة أيام ثورته على الهادى العباسى سنة ١٦٩ هـ ثم قتل الحسين ، فأنهـــزم إدريس إلى مصر فالمغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـــ ، ونزل مدينة وليلى " على مقـــربة من مراكش" وكان كبيرها يومئذ إسحاق بن محمد فعرفه إدريس بنفسه فأجاره وأكرمه ثم جمع البربر على القيام بدعوته ، وخلع طاعة بنى العباس، فتم لـــــه الأمر " يـــوم الجمعة فى ٤ رمضان ١٧٢ هــ " فجمع جيشاً كثيفاً وخرج به غازياً فبلغ بلاد تادلـــة " قرب تلمسان وفاس " ففتح معاقلها وعاد إلى وليلى ثم غزا تلمسان فبايع له صـــاحبها وعظـــم أمر إدريس فأستمر إلى أن توفى مسموماً فى وليلى سنة ١٧٧ هــ .

انظر الاستقصا ١/ ٦٧ ، تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٢ .

(2) هـــو سفيان بن عيينة بن أبى عمران ميمون الهلالى أبو محمد الكوفى الأعور ، أحد أئمة الإسلام، روى عن عمرو بن دينار والزهرى وزياد بن علاقة وزيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر وخلق. وعنه الشافعى وابن المدينى وابن معين وابن راهوية والفلاس. مات سنة ١٩٨ هــ .

أنه قال : «أن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة مسيرة أربعين خريفاً لا يغلقه الله تعالى حتى تطلع الشمس من مغربها» [1] نقله ابن الرقيق[2] . وفى المصنفات الصحاح من رواية سعد[3] بن أبي وقاص[4] وغيره أن رسول الله صلى الله علية

= انظر المزيد فى : تاريخ بغداد ١٧٤/٩ ، تذكرة الحفاظ ٢٦٢/١، حلية الأولياء ٧/ ٢٧٠ ، خلاصة تذهيب الكمال ١٢٣ ، الرسالة المستطرفة ٤١ ، شذرات الذهب ١/ ٣٥٤ ، طبقات ابن سعد ٥/ ٣٦٤ . طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٣٠٨ ، العبر ١/ ٣٢٦ .

(١) ورد فى مفتاح كنوز السنة كذلك رواه أبو داود فى سننه .

(٢) هو إبراهيم بن القاسم أبو إسحاق المعروف بالرقيق أو ابن الرقيق مؤرخ أديب من أهل القيروان ، كان يلى كتابة الحضرة فى الدولة الصنهاجية، وأستمر فيها زهاء نصف قرن ورحل إلى مصر سنة ٣٨٨ هـ يحمل هدية من باديس بن زيرى إلى الحاكم، وعاد إلى وطنه فتوفى فيه على الأرجح يعد سنة ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م . وصفة ابن رشيق صاحب العمدة " بأنه شاعر سهل الكلام محكمه، لطيف الطبع غلب عليه أسم الكتابة وعلم التاريخ وتأليف الأخبار وهو بذلك أحذق الناس " وقال ابن خلدون فى المقدمة : ابن الرقيق مؤرخ إفريقية والدول التى كانت بالقيروان ولم يأت من بعده إلا مقلد ونعته ياقوت فى معجم الأدباء بالكتاب وأورد أسماء كتبه ومنها " تاريخ إفريقية والمغرب" عدة مجلدات و " كتاب النساء" و "نظم السلوك فى مسامرة الملوك " وله " قطب السرور فى وصف الأنبذة الخمور" .

انظر: معجم الأدباء ١/ ٢٨٧ ، الإعلان بالتوبيخ ١٢٢، الخطط المقريزية ١/ ٣٧٠.

(٣) وردت فى الأصل سعيد والصواب فى المتن .

(٤) هو سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشى الزهرى أبو إسحاق الصحابى الأمير فاتح العراق ومدائن كسرى، وأحد الستة الذين عينهم عمر للخلافة، وأول من رمى بسهم فى سبيل الله وأحد العشرة المبشرين بالجنة. ولد سنة ٢٣ ق هـ / ٦٠٣ م ، ومات سنة ٥٥ هـ / ٦٧٥ م . =

وسلم قال: «لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة» [1] ومن طريق آخر « لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى تقوم الساعة وأهل المغرب فهم أهـــل المغرب الذى هو ضد المشرق » [2]على أصح التاويلات وأوضح الدلالات وحقيقة المغرب هو المكان الواقع فى شق الغربى . قال أحد الشعراء

المغرب شئ مليـــــــــــح ولى دليل عليـــــــــــه
البدر يرقب منـــــــــــه والشمس تجرى إليـــــــــه

وحكى أبو الجلجل[3] فى طبقات الأطباء أن ملك اليونان كتب إلى عامله بأرض بابل[4] .

= انظــر : طبقات ابن سعد ٦/٦، الكنى والأسماء ١١/١، نكت الهميان ١٥٥/ أشهر مشــاهير الإسلام ٥٢٥ ، تهذيب ابن عساكر ٩٣/٦، حلية الأولياء ٩٢/١ ، الرياض النضرة ٢/ ٢٩٢ — ٣٠١ ، تاريخ الخميس ١/ ٤٩٩ ، تهذيب التهذيب ٣/ ٤٨٣ .

(١) رواه أبو داود والدارقطنى .

(٢) رواه الترمذى والنسائى .

(٣) نشر هذا الكتاب فى عدة طبعات .

(٤) بكسر الباء أسم الناحية منها الكوفة والحلة ينسب إليها السحر والخمر قال الأخفش : لا ينصرف لتأنيثه وذلك أن أسم كل شىء مؤنث إذا كان علماً وكان على أكثر من ثلاثة أحــرف فإنـــه لا ينصرف فى المعرفة. وقال المفسرون فى قوله تعالى : ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ "سورة البقرة الآية ١٠٢ " قيل بابل وقيل دبناوند. وقال أبو الحسن : بابل الكوفة . وقال أبو معشر : الكلدانيون هم الذين كانوا يترلون بابل فى الزمن الأول ويقال إن أول من سكنها نوح عليه السلام وهو أول من عمرها وكـــان قـــد نزلها بعقب الطوفان . وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل دهقان الفلوجه عن عجائب بلادهم فقال كانت بابل سبع مدن فى كل مدينـــة =

أن يبعث إليه بقراط [1] الحكيم بتبجيل وتكريم وأمره أن يدفع إليه جملة قناطير من الذهب لينقله وامتنع وما ذلك إلا لفضل إقليمه على غيره وأرض بابل من الإقليم الرابع الذى فاس منه .

وأول بلاد المغرب على ما حكاه صاحب جغرافيا جبال برقة [2] جبال اوتان [3] فى المشرق وهذه الجبال آخر عمل مصر وأول عمل القيروان[4] وينقسم

= أعجوبة ليست فى الأخرى، قال البكرى: بابل بالعراق مدينة السحر معروفة . روى أبـو داود مـن طريق ابن وهب عن ابن لهيعة عن عمار بن سعد المرادى عن أبى صالح الغفارى أن علياً مر ببابل، فجاءه المؤذن يؤذنه بالصلاة، صلاة العصر، فلما برز منها أمر المؤذن فأقام ، وقال إن حبى نهانى أن أصلى فى المقبرة ، ونهانى أن أصلى ببابل فإنها ملعونة. قال أصحاب الأخبار : بنى نمروذ الخاطى الجدل ببابل، طوله فى السماء خمسة آلاف ذراع وهو البنيان الذى ذكره الله فى كتابه فقال تعالى : ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ سورة النحل الآية ٢٦ ، قالوا : وبات الناس ولسانهم سريانى فأصبحو وقد تفرقت لغاتهم على أثنين وسبعين لساناً، وأصبح كل يبلبل بلسانه، فسمى الموضع بابلاً، وقال الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمذانى وكان أسمه خيتارث وربما سموا العراق بابلا.

انظر : معجم البلدان ١/ ٣٠٨ – ٣١٠ ، معجم ما استعجم ١/ ٢١٨ – ٢١٩ .

(١) الطبيب اليونانى والفيلسوف له عدة مصنفات ومؤلفات.

(٢) بفتح أولـه والقاف اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية وأسم مدينتها أنطابلس .

انظر : مزيد من التفاصيل فى معجم البلدان ١/ ٣٨٨ – ٤٠١ .

(٣) له ذكر فى مختصر البلدان لابن الفقيه .

(٤) مدينة عظيمة بإفريقية غبرت دهراً وليس بالغرب مدينة أجل منها إلى أن قدمت العرب إفريقية وأخربت البلاد فأنتقل أهلها عنها فليس بها اليوم إلا صعلوك لا يطمع فيه ، =

المغرب على ثلاثة أصقاع : والصقع الأول هو موضع كرسى إفريقية ثم جبال برقة واوتان إلى جبال نفوسة .

والصقع الثانى : المغرب الأوسط وأوله تاهرت[1] إلى جبل سبته إلى جبال درن [2].

والصقع الثالث : السوس الأقصى[3] وحدّه فى المغرب البحر المحيط الأعظم من ماسة إلى صحراء المرابطين .

وهذا الأقليم الرابع هو الأوسط من الأقاليم السبعة التى رسمها حكماء الهند وهو أعمرها وفيه أرض بابل وجزيرة العرب وبقية بلاد البربر فى أقصى المغرب وبعض مدن جزيرة الأندلس كإشبيلية [4] وقرطبة[5]

= وهى مدينة مصرت فى الإسلام فى أيام معاوية .

انظر : معجم البلدان ٤/ ٤٢٠ – ٤٢١ .

(١) بفتح الهاء وسكون الراء وتاء فوقها نقطتان اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب، يقال لإحداهما تاهرت القديمة وللأخرى تاهرت المحدثة، بينهما وبين المسيلة ست مراحل .

انظر : معجم البلدان ٢/ ٧ – ٨ .

(٢) بالتحريك جبل من جبال البربر بالمغرب فيه عدة قبائل وبلدان وقرى .

انظر : معجم البلدان ٢/ ٤٥٢ .

(٣) كورة مدينتها طرفلة ، ومن السوس الأدنى إلى السوس الأقصى مسيرة شهرين .

انظر : معجم البلدان ٣/ ٢٨١

(٤) بالكسر ثم السكون وكسر الباء الموحدة وباء ساكنة ولام وياء خفيفة مدينة كبيرة عظيمة وبها قاعدة ملك الأندلس وسريره .

انظر : معجم البلدان ١/ ١٩٥ .

(٥) وهى مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها وكانت سريراً لملكها وقصبتها وبها كانت ملوك بنى أمية.

انظر : معجم البلدان ٤/ ٣٢٤ – ٣٢٥ .

وغـــرناطة [1] والمـــرية [2] ومرسية [3] ، وفيه بغداد وبأعتادّاه أعتدلت أبدان أهله فسلموا من شغرة [4] الروم وسواد الجيش وغلط الترك وجفاء أهل الجبال ودماهة أهل الصين ، وكما أعتدلوا فى الخلقة لطفوا فى الفطنة والذكاء والعلم .

ذكر مضى ذلك صاحب المدهش وغيره وهذا الإقليم عند الحكماء كريم لبقعة طيب التربة فحصب البقعة كثير العيون والأنهار وقليل العوام ذوات السموم، معـــتدل الهواء فى الفصول الأربعة على قدر متقارب من الاعتدال متوسط فى أكثر الزمان تتصل فوائده وفواكهه فى كل الأزمنة .

---

(1) بفتح أوله وسكون ثانية ثم نون وبعد الألف طاء مهملة . وهى أقدم مدن كورة البيرة مـــن أعمال الأندلس وأعظمها وأحسنها وأحصنها يشقها النهر المعروف بنهر قلزم فى القديم ويعرف الآن بنهر حداره .
انظر : معجم البلدان ٤/ ١٩٥ .

(2) بالفـــتح ثم الكسر وتشديد الياء بنقطتين من تحتها ، وهى مدينة كبيرة من كورة البيرة من أعمال الأندلس .
انظر : معجم البلدان ٥/ ١١٩ .

(3) بضم أوله والسكون وكسر السين المهملة وياء مفتوحة خفيفة وهاء ، مدينة بالأندلس من أعمال تدمير اختطها عبد الرحمن بن الحكم .
انظر : معجم البلدان ٥/ ١٠٧ .

(4) وردت فى الأصل شفرة والصواب فى المتن .

وأما حكم أرضه فقال أبو الحسن القابسي[1] في شرح موطأ[2] مالك[3] رحمه الله من كتاب الجهاد اختلف الناس في أرض المغرب هل افتتحت عنوة أو صلحاً أو مختلطة على ثلاثة أقوال :

---

(1) هو علي بن محمد بن خلف المعافري القيرواني أبو الحسن بن القابسي عالم المالكية بإفريقية في عصره ، كان حافظاً للحديث وعلله ورجاله فقيهاً أصولياً أعمى، من أهل القيروان. له تصانيف منها " الممهد" كبير جداً في الفقه وآحكام الديانات و "المنقذ من شبه التأويل" و "ملخص الموطأ" و " الرسالة المفضلة لأحوال المعلمين والمتعلمين" ولد سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٦ م ومات سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢ م .

انظر : معالم الإيمان ٣/ ١٦٨ ، نكت الهميان ٢١٧ ، وفيات الأعيان ١/ ٣٣٩ .

(2) بمعنى السهل الواضح .

(3) هو الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحي الحميري أبو عبد الله المدني شيخ الأئمة وإمام دار الهجرة. روى عن نافع ومحمد بن المنكدر وجعفر الصادق وحميد الطويل وخلق. وعنه الشافعي وخلائق جمعهم الخطيب في مجلد. مات بالمدينة المنورة سنة ١٧٩ هـ .

انظر : الأنساب ورقة ٤١ م ، البداية والنهاية ١٠/١٧٤، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٠٧، تهذيب الأسماء ٢/ ٧٥ ، تهذيب التهذيب ١٠/٥، جمهرة الأنساب لابن حزم ٤٣٥ ، حلية الأولياء ٦/ ٣١٣ ، الديباج المذهب ١٧ ، الرسالة المستطرفة ١٣ ، شذرات الذهب ١/ ٢٨٩، صفوة الصفوة ٢/ ٩٩، طبقات ابن سعد ٥/ ٤٥ ، طبقات الفقهاء ٦٧ ، طبقات القراء لابن الجزري ٢/ ٣٥ ، طبقات المفسرين للداودي ٢/ ٢٩٣، العبر ١/ ٢٧٢ ، اللباب ١/ ٥٥ ، مرآة الجنان ١/ ٣٧٣ ، مروج الذهب ٣/ ٣٥٠ ، النجوم الزاهرة ٢/ ٩٦ .

الأول : الذى يظهر من رواية ابن القاسم [1] عن مالك أنها افتتحت عنوة بالسيف لأنه جعل فى المعادن النظر الإمام ولو صح ذلك لم يجز لأحد بيع شئ منها كأرض مصر وطنجة [2] لأنها افتتحت بالسيف .

الثانى : قيل صلحاً صالح عليها أهلها فإن كان كذلك جاز بيع بعضهم من بعض .

الثالث : قيل أنها مختلطة هرب بعضهم من بعض وتركوها فمن بيده شئ كان له وهو الصحيح والله أعلم .

وقال الداوودى [3] : فى كتاب الأصول له يمر بسط كلام فى ذلك. أما الذى يوجبه النظر فيها أن تجرى على ما توالت عليه القرون الماضية فى أخرها وتقرر فى أيدى مالكها إلا ما تدارت فيه الأخبار أنه اغتصب أو جلى عنه أهله .

---

(1) هو عبد الرحمن بن القاسم بن خالد العتقى أبو عبد الله المصرى الفقيه، راوية المسائل عن مالك، روى عن بكر بن مضر وابن عيينة وعدة . وعنه ابنه موسى وأصبغ بن الفرج وسحنون بن سعيد. ثقة ، مات سنة ١٩١ هـ .

انظر : وفيات الأعيان ١/ ٢٧٦ ، اللباب ٢/ ١٢٠ ، العبر ١/ ٣٠٧، شذرات الذهب ٣٢٩/١ ، الديباج المذهب ١٤٦ ، حسن المحاضرة ١/ ٣٠٣ ، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٥٦ ، تهذيب التهذيب ٦/ ٧١ .

(2) بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء .

انظر : التفاصيل فى فى معجم البلدان ٤/ ٤٣ .

(3) هو محمد بن عبد الحى بن محمد عبد الحليم الأنصارى الكنوى الهندى أبو الحسنات عالم بالحديث والتراجم من فقهاء الحنفية. ولد سنة ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٨م، ومات سنة ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٧ م . له عدة مصنفات منها "الآثار المرفوعة فى الأخبار الموضوعة" و "الإفادة الخطيرة" فى الهيئة. و "التحقيق العجيب" فقه و " الرفع والتكميل فى الجرح والتعديل" فى رجال الحديث و "ظفر الأمانى فى مختصر الجرجانى" فى مصطلح الحديث،=

قال التادلي[1] الحافظ أن أرض المغرب أسلم عليها أهلها . ويحكى أن أحد عمال المنصور بن أبي عامر[2] حين تغلب على أرض فاس قال لهم أخبروني على أرضكم أصلح هي أم عنوة . فقالوا لا جواب عندنا حتى تأتي الفقيه يعنون أباجيدة بن أحمد[3] فجاء أبوجيدة فسأله فقال ليست بصلح ولا عنوة أنما أسلم عليها ، فقال لهم : خلصكم الرجل ، وأبوجيدة هو المدفون خارج باب بنى مسافر أحد أبواب فاس والدعاء عند قبره مستجاب وله نفع الله به كرامات من أراد

= و "مجموعة الفتاوى " مجلدان و "نفع المفتى والسائل بجميع متفرقات المسائل" فقه و "التعليق الممجد " على موطأ الإمام محمد الشيباني، و"فرحة المدرسين بأسماء المؤلفات والمؤلفين" و " طرب الأماثا بتراجم الأفاضل " و " إنباء الخلان بأنباء علماء هندستان" .

انظر : الرسالة المستطرفة ١١٥ ، الفوائد البهية ٢٤٨ .

(١) هو عبد الله بن محمد بن عيسى التادلي أبو محمد قاضي فاس ومن أعلامها كان فقيهاً أديباً مفتياً شاعراً، بطلاً من الشجعان له " رسائل " نسبته إلى تادلة من جبال البربر بالمغرب، ولد سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م ، ومات سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠م بمكناسة مغرباً عن وطنه .

انظر : جذوة الاقتباس ٤ ، لسان الميزان ٣/ ٣٤٣ .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن عامر بن محمد أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافرى القحطاني أبو عامر المعروف بالمنصور بن أبي عامر أمير الأندلس في دولة المؤيد الأموى وأحد الشجعان الدهاة أصله من الجزيرة الخضراء . ولد سنة ٣٢٦ هـ / ٩٣٨ م ومات سنة ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م.

انظر : الحلة السيراء ١٤٨ ، تاريخ قضاة الأندلس ٨٠، نفح الطيب ١/ ١٨٩ ، تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٤٧ ، الكامل في التاريخ ٩/ ٦١ ، بغية الملتمس ١٠٥ ، الوافي بالوفيات ٣/ ٣١٢ ، البيان المغرب ٢/ ٣٠١ .

(٣) ورد في الحلة السيراء ٢٥٧ .

الوقوف عليها فيطالع كتاب المستفاد فى ذكر الصالحين من فاس والعباد الذى ألفه أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الفندلاوى المعروف بالكتانى [١] .

نزول البربر بالمغرب

وأما سبب نزول البربر بأرض المغرب من أرض فلسطين فإن ملكها جالوت لما قتله داود عليه السلام جلب البربر بأرض المغرب فتفرقت فى تلك البلاد من موضع القيروان إلى ساحل البحر الأندلسى وكانت هذه البلاد قبل البربر للروم فجلت الروم قدامهم إلى صقلية وهى جزيرة عظيمة فى البحر تجازى بلاد إفريقية ثم رجع الأفارقة من الروم إلى مدائنهم على صلح من البربر إذ كرهت البربر نزول المدائن فنزلوا فى الجبال والرمال والوهاد لكونهم أصحاب إبل وبقر وغنم وسكان بيوت أدم وشعر فعادت المدن رومية والجبال والصحارى بربرية وهم يومئذ على أديان مختلفة ثم بعث النبى صلى الله عليه وسلم وخلافة الخلفاء الراشدين أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه [٢] وعمر بن الخطاب ، رضى الله عنه [٣]

---

(١) الثابت هو محمد بن عبد الكبير بن محمد أبو الفيض وأبو عبد الله الكتانى .
انظر : معجم الشيوخ ١/ ٤٤ – ٤٩ .

(٢) انظر مزيد من التفاصيل فى : أسد الغابة ٣/ ٣٠٩ ، تاريخ الخلفاء ٢٧ ، تذكرة الحفاظ ١ / ٢ ، شذرات الذهب ١/ ٢٧ ، طبقات الفقهاء ٣٦ ، العبر ١/ ١٦ ، مروج الذهب ٢/ ٣٠٥ .

(٣) انظر مزيد من التفاصيل فى : اسد الغابة ٤/ ١٤٥ ، الإصابة ٢/ ٥١١، تاريخ الخلفاء ١٠٨ ، تذكرة الحفاظ ١/ ٥ ، خلاصة تذهيب الكمال ٢٣٩، شذرات الذهب ١/ ٣٣، طبقات الفقهاء ٣٨ ، طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٥٩١، العبر ١/ ٢٧ ، مروج الذهب ٢/ ٣١٢ ، النجوم الزاهرة ١/ ٧٨ .

وعثمان [1] وعلى [2] رضى الله عنهما وصدر دولة بنى أمية ، ولى يزيد بن معاوية [3] عقبة بن نافع الفهرى[4] على بلاد المغرب فى سنة اثنتين وستين من الهجرة واستفتح بعضه إلى أن بلغ البحر الأعظم حيث ماسة وأدخل فيه قوائم فرسه ثم جعل يقول وعليكم السلام فقال أصحابه على من تسلم يا ولى الله ، فقال لهم أن قوم يونس عليه السلام سلموا على وسلمت عليهم ولولا البحر لأريتكم إياهم وأسلم إذ ذاك على يده بعض من بالمغرب وحين رجع منه ارتد بعض من

---

(1) انظر التفاصيل فى : أسد الغابة ٣/ ٥٨٤ ، الإصابة ٢/ ٤٥٥، تاريخ الخلفاء ١٤٧ ، تذكرة الحفاظ ١/ ٨ ، خلاصة تذهيب الكمال ٢٢١ ، شذرات الذهب ١/ ٤٠ ، طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٥٠٧ ، طبقات القراء للذهبى ١/ ٢٩، العبر ١/ ٣٦ ، مروج الذهب ٢/ ٣٤٠ ، النجوم الزاهرة ١/ ٩٢ .

(2) انظر : أسد الغابة ٤/ ٩١ ، الإصابة ٢/ ٥٠١ ، تاريخ بغداد ١/ ١٣٣ ، تاريخ الخلفاء ١٦٦ ، تذكرة الحفاظ ١/ ١٠ ، خلاصة تذهيب الكمال ٢٣٢ ، شذرات الذهب ١/ ٤٩ ، طبقات القراء للذهبى ١/ ٣٠ ، العبر ١/ ٤٦ ، مروج الذهب ٢/ ٣٥٨ ، النجوم الزاهرة ١/ ١١٩ .

(3) انظر : تاريخ الخميس ٢/ ٣٠٠ ، منهاج السنة ٢/ ٢٣٧ — ٢٥٤ ، الكامل ٤/ ٤٩ ، مختصر تاريخ العرب ٧١ — ٧٦ ، البدء والتاريخ ٦/ ٦ — ١٦ ، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٢١٥ ، جمهرة الأنساب ١٠٣ ، بلغة الظرفاء ١٩ ، مروج الذهب ٢/ ٦٧ — ٧٣ ، القلائد الجوهرية ٢٦٢ ، رغبة الأمل ٤/ ٨٣ — ٨٤ و ٥/ ١٢٩ ، الوزراء والكتاب ٢٥ .

(4) هو عقبة بن نافع عبد القيس الأموى القرشى الفهرى فاتح من كبار القادة فى صدر الإسلام وهو بانى مدينة القيروان . ولد سنة ١ ق هـ / ٦٢١ م ، ومات سنة ٦٣ هـ/ ٦٨٣ م .

انظر : الاستقصا ١/ ٣٦ — ٣٨ ، البيان المغرب ١/ ١٩ ، فتح العرب للمغرب ١٣٠ — ١٥٢ ثم ١٧٨ — ٢٠٥ ، بغية الرواد ١/ ٧٦ .

أسلم ثم ولى الوليد بن عبد الملك[1] بن مروان بن الحكم موسى بن نصير[2] على المغرب أيضاً فى سنة اثنتين وتسعين وصار فيه حتى بلغ سبتة وطنجة وجاز منه لبر الأندلس وافتتحه مع مولاه طارق بن زياد[3] وأسلم على يده أيضاً بعض من بالمغرب حتى لم يبق منه موضع إلا وعند الله تعالى فيه بسبب قدوم ولى الله الصالح إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكان سبب قدومه من المشرق إلى المغرب على ما حكاه محمد بن جرير الطبرى[4] وغيرة

---

(1) انظر التفاصيل فى : الكامل ٥/ ٣ ، تاريخ الطبرى ٨/ ٩٧ ، بلغة الظرفاء ٢٣ ، تاريخ اليعقوبى ٣/ ٢٧ ، تاريخ الخميس ٢/ ٣١١ – ٣١٤ ، مروج الذهب ٢/ ١١٩ – ١٢٧ ، الذهب المسبوك ٢٩ ، عنوان المعارف للصاحب ١٥ .

(2) هو موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمى بالولاء أبو عبد الرحمن فاتح الأندلس، أصله من وادى القرى بالحجاز، كان أبوه نصير على حرس معاوية. ولد سنة ١٩ هـ / ٦٤٠ م ومات سنة ٩٧ هـ / ٧١٥م .

انظر : نفح الطيب ١/ ١٠٨ – ١٣٤ ، الحلة السيراء ٣٠ ، وفيات الأعيان ٢/ ١٣٤ ، جذوة المقتبس ٣١٧ ، بغية الملتمس ٤٤٢ ، تراجم إسلامية ١٠٩ ، البيان المغرب ١/ ٤٦ ، نخب تاريخه ١١

(3) هو طارق بن زياد الليثى بالولاء فاتح الأندلس، أصله من البربر أسلم على يد موسى بن نصير ، ولد سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م ، ومات سنة ١٠٢ هـ / ٧٢٠ م .

انظر : نفح الطيب ١/ ١٠٨ ، البيان المغرب ١/ ٤٣ ، بغية الملتمس ١١و ٣١٥، المعجب ٩ – ١١ و ٣١٥ ، المعجب ٩ –١١ ، الكامل ٤/ ٢١٢ ، تهذيب ابن عساكر ٧/ ٣٨ .

(4) هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الإمام العلم أبو جعفر الطبرى له عدة مصنفات منها " تهذيب الآثار " و "تاريخ الإسلام" و "التفسير" مات سنة ٣١٩ هـ .

انظر : البداية والنهاية ١١/ ١٣٥ ، تاريخ بغداد ٢/ ١٦٢ ، تذكرة =

أن إســحاق بن عيسى الأمير بالمدينة وفد على الخليفة موسى الهــادى [1] بن أبي جعفــر المنصــور واستخلف عليها عمر [2] بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطــاب رضى الله عنه فظهر منه مخالفة فى آحكامه فغير عليه ذلك حسين بن على ابــن حســن بن حسن بن على بن أبي طالب رضى الله عنه ، ورفض لناس إمرته واســتدعوا حســينا للبيعة ، فجلس على المنبر وعليه عمامة بيضاء ، وصار الناس يأتونــه يــبايعونه على كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وجاء خالد البربرى فى مائتين من الجند يقاتل حسينا فقاما إليه ابنا عبد الله بن حسن بن حسن بــن عــلى بن أبي طالب رضى الله عنه وهما يحيى وإدريس فضربه يحيى على أنف البيضــة وقطعها وقطع أنفه فشربت عيناه بالدم فلم يبصر فنزل وجعل يده بسيفه عــن نفســه وهــو لا يبصــر واستداره إدريس من خلفه فضربه وصرعه وعلواه بأســيافهما حــتى قــتلاه ثم قتل بالمدينة شيعة بنى العباس وجاء مبارك التركى [3] فأغــاثهم ثم تركهم ، وأقام حسين بالمدينة أحد عشر يوما وأصحابه فغدروه ولحق بمكــة وكان وفد للحج تلك السنة محمد بن سليمان بن على بن محمد بن عبد الله ابــن العــباس والعباس بن محمد بن على وموسى بن عيسى بن موسى بن العباس

= الحفــاظ ٢/ ٧١٠، تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٧٨ ، طبقات السبكى ٣/ ١٢٠ ، طبقات الفقهاء ٩٣، طبقات العبادى ٥٢ ، الوافى بالوفيات ٢/ ٢٨٤ .

(١) انظر : الكامل ٦/ ٢٩ — ٣٦ ، تاريخ اليعقوبى ٣/ ١٣٦

(٢) انظر المزيد فى : تاريخ الخلفاء ٢٢٨ ، تذكرة الحفاظ ١/ ١١٨، تهــذيب التهذيب ٧/ ٤٧٥، حلية الأولياء ٥/ ٢٥٣ ، خلاصة تذهيب الكمال ٢٤١ ، شذرات الذهب ١١٩/١، صفوة الصفوة ٢/ ٦٣ ، طبقات ابن سعد ٥/ ٢٤٢ ، طبقات الفقهاء ٦٤، طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٥٩٣ ، العبر ١/ ١٢٠ ، النجوم الزاهرة ٢٤٦/١ .

(٣) انظر : تاريخ المغرب للدكتور حسين مؤنس ٢/ ١٢٠ .

وعلى الموسم سليمان بن أبي جعفر المنصور فأتوا ذا طوى فى أربعة آلاف فارس ، وقد ورد كتاب الهادى بتولية محمد بن سليمان الحرب فوجه محمداً أبا كامل مولى لإسماعيل بن على فلما رأى القوم صار معهم فظفر به فقتله ثم قاتل محمد بن سليمان حسينا فهزمه وقتله وقتل أكثر من كان معه وأقاموا ثلاثة أيام حتى أكلت لحومهم الطير والسباع وكان ذلك بفخ وهو موضع فيه قرية على مسيرة ثلاثة أميال من مكة شرفها الله تعالى . كذا ضبطها البكرى [1] فى كتاب معجم ما استعجم فى حرف الفاء وتشديد الخاء المعجمة وكثير من لا خبرة له بالتاريخ يقول له بالجيم والتحقيق أنه بالخاء المعجمة كما ذكر وكانت هذه الوقعة فى يوم السبت وصادفت يوم التروية الثامن لشهر الحجة من سنة تسعة وستين ومائة وقال فيه أحد الشعراء :

فلا بكين على الحسين	بعولة وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة الذى	تركوه ليس بذى كفن
تركوا بفخ غدوة	فى غير منزلة الوطن
كانوا كراما قتلوا	لا طائشين ولا جبن
غسلوا المذلة عنهم	غسل الثياب من الدرن
هدى العباد بجدهم	فلهم على الناس المنن

وحضره بعد الوفاة محمد بن سليمان قاتل حسين فجعل جلساؤه يلقنونه الشهادة وهو يقول :

آلا ليت أمى لم تلدنى ولم اكن	لقيت بفخ لا حسينا ولا حسن

(١) انظر : ترجمته فى : الصلة لابن بشكوال ٢٨٢ ، طبقات الأطباء ٢/ ٥٢ ، بغية الوعاة ٢٨٥ ، آداب اللغة ٣/ ٨٤ ، دائرة المعارف الإسلامية ٤٨ – ٥٠٠ ، وقد نشر هذا الكتاب فى لجنة التأليف والترجمة – بالقاهرة .

وفى هذه الواقعة أفلت إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بـــن أبى طـــالب على ما حكاه المظفرى[1] وصار مع مولاه راشد إلى مصر وعلى بريدها واضح مولى صالح بن منصور فجعله على البريد إلى المغرب فوقع بحومة بلاد طنجة ثم إلى بـــلد وليـــلى قاعدة زرهون واستجاب لـــه قبائل البربر وعلاه أمره وشاع خـــبره،وهذه البلدة قديمة البناء يذكر أنها من بنيان القبط وهى معروفة الآن بقصر فـــرعون مـــن أرض أولاد تعـــلو وهى متوسطة بين العمارات خصيبة كريمة المياه والفـــرس والزيـــتون كان لها سور عظيم قد بقى بعضه و فيه عبرة للمعتبرين . ولما وصـــل مولاناه إدريس إلى بلد وليلى [2] نزل على صاحبى الأمير إسحاق بن محمد ابـــن عبد الله الأوروبى فأقبل عليه واكرامه وبالغ فى بره ، وكان نزوله بو ليلى فى أول شـــهر ربيع الأول من سنة اثنتين وسبعين ومائة فأقام عنده والناس يفدون عليه إلى أن دخـــل شهر رمضان السنة فبايعه جميع قبائل البربر وخرج بهم إلى تامسنا[3] ففـــتح شلة [4] وسائر تلك الحصون وصار إلى تادله [5] فافتتح حصونه إلى أن بلغ ماسة ، وكان أكثر هذه البلاد على دين النصرانية واليهودية والمجوسية والإسلام بها

---

(1) نشر هذا الكتاب فى بيروت عام ١٩٨٧ م .

(2) مدينة بالمغرب قرب طنجة لما دخل إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ناجياً من وقعة فخ حصل بها فى سنة ١٧٢ هـــ فى أيام الرشيد وأقام بها على أن مات مسموماً فى قصة طويلة سنة ١٧٤ هـــ .

انظر : معجم البلدان ٥/ ٣٨٤ طبعة دار صادر .

(3) قرية لكتامة وزنانة قرب المسيلة وأشير بالمغرب .

انظر : معجم البلدان ٢/ ٧ .

(4) انظر : المعجب للمراكشى ١٧ .

(5) بفتح الدال واللام من جبال البربر بالمغرب قرب تلمسان وفاس .

انظر : معجم البلدان ٢/ ٥ – ٦ .

قـــليل فأسلم جميعهم لم يبق بالمغرب موضع يعبد غير الله فيه وذلك مما أخبر الرسول به عليه الصلاة والسلام أن يكون فأنه فى جاء فى الصحيح أنه قال :

زويت لى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى مـــنها ولما نزل إدريس بخارج تلمسان واستقلت له إمارة المغرب بأسره اتصل ذلك بالرشـــيد وضـــاق وأهتم لذلك وخشى أن يتوجه لإفريقية فيصل إليه لما يعلم من فضله وكماله ومحبة الناس فى آل البيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث إليه الرشـــيد من يقاله واختار لذلك سليمان بن جرير فخرج إليه من بغداد حتى وصل المغـــرب وقدم إلى إدريس بمدينة وليلى فسلم عليه سليمان وسأله إدريس عن أسمه ونســـبه ومن أى بلاد قدم ؟ وما سبب قدومه إلى المغرب ؟ فذكر له أنه من بعض موالى أبيه وأنه أتصل به خبره فأتاه برسم خدمته لأجل محبته وولايته لأهل البيت إذ لا يعـــدل بهم أحد ولا يقاس بهم سواهم فأنس به إدريس وسكن إلى فوله وسربه ، فكـــان إدريـــس لا يعقد ولا يأكل ولا يشر إلا معه ولم يزل يترقب الفرصة ويعمل الحيـــلة فى قتله فلم يجد لذلك سبيلاً لموالاة مولاة راشد [1] الذى لا يزايـــــــله

(1) انظر التفاصيل فى: الأنيس المطرب ٣٧ . هو راشد مولى إدريس بن عبد الله بن الحسن ابن المثنى، وأمينه كان فى خدمته بالمدينة ثم بمكة وخرج معه من هذه عاربين مستترين بعد وقعة "فخ" التى قتل فيها الحسين بن على بن الحسن المثلث سنة ١٦٩ هـــ ، فمرا بمصر وإفريقية ودخلا المغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـــ ، فأقاما بمدينة "وليلى" بقرب مراكش. ودعـــا إدريـــس إلى نفسه، فعظم أمره وملك " وليلى" وبلاداً أخرى ، وراشد عون له وكـــالىء . وقتل إدريس بالسم . فلحق راشد بقاتله فضربه بالسيف فقطع يمناه ، وعاد إلى وليلى، فعلم من جارية لإدريس أسمها " كترة" أنها حامل ، فتولى إدارة الملك بأسم "الجنين" إلى أن ولدت كترة، فسمى ولدها (إدريساً) على اسم أبيه وجدد له بيعة البربر، وقام بأمره وأمر دولته ، وعلمه ورباه. وكان الأغالبة فى القيروان يتتبعون أخبار الدولة الناشئة فى جوارهم ، ويبعثون بالأموال للقضاء على إدريس (الرضيـع) وكانت لهم يد =

ولا يفارقه إلى أن غاب رشيد ذلك يوماً فى بعض شؤنه فدخل عليه سليمان فوجده. فقال: يا سيدى جعلت فداك إنى جئت من المشرق بفارورة طيب لا تطيب بها ثم إنى رأيـــت أن الإمام أولى بها فخذها لتتطيب بها فقد اثرتك بها على نفسى ثم أخرجها ووضعها بين يدى إدريس فأخذ إدريس الفارورة ففتحها وشمها ، فلما رءاه سليمان فعـــل ذلك تحصل له مراده وتمت حيلته جعل يتسلل من المجلس وخرج كأنه يريد قضـــاء حاجته فصار إلى منزله وركب فرساً له من سباق الخيل كان قد أعده لذلك وخـــرج من وليلى يطلب النجاة وكانت الفارورة مسمومة فحين استنشق إدريس الطيـــب الذى بها صعد السم إلى خياشمه وانتمى إلى دماغه فغشى عليه وسقط ميتا وذلـــك فى منسلخ شهر ربيع الآخر من سنة خمس وسبعين ومائة فكانت أيام دولته ســـنتين وثمانية أشهر انتهى ما حكاه البكرى فى مسالكه. قال شاعر على ما حكاه المظفـــرى .

أتظن يا إدريس إنك مفلـــــــت	كيد الخليفة أو يقيك فـــــرار
أن السيوف إذا اقتضاها سخطــه	طالت تقصر دونها الأعمــــــار
فليدركنك أو تدلى ببلـــــــــدة	لا يمتدى فيها فـــــــــرار
ملك كان الموت يتبع أمــــــره	فمتى يقول تطيعه الأقــــدار

ودفـــن إدريـــس رضى الله عنه بخارج باب وليلى ولم يزل الناس يعتنون بزيارة قبرة ويدعون إلى الله فى الحوائج فيستجاب لهم وظهر جسده بكفنه فى سنة

= فى : قـــتل أبيه بالسم . فما زالوا على ذلك إلى أن تمكن " إبراهيم بن الأغلب" من دس بعض البربر لراشد، فقتلوه غيلة ، فى وليلى، بعد نشوء إدريس وتسلمه عرش أبيه بقليل.

ثمانى عشرة وسبعمائة وازدحم الناس عليه من سائر أقطار المغرب حتى خيفت الفتنة بسبب ذلك فبعث أمير المسلمين أبو سعيد بن يعقوب بن عبد الحق تقبل الله أعماله بتفريقهم وتحسيم الفتن من أجل ذلك ، كذا وقفت عليه فى أمر سلطانى يقضى بذلك .

ولما توفى إدريس ترك جارية له مولده من بلاد البربر اسمها كنزة حاملاً فى السابع من أشهر حملها وحين دنا وضعها ولدت ولداً ذكراً أشبه الناس بأبيه إدريس وذلك فى رجب من سنة خمس وسبعين ومائة وسمى باسم أبيه وأقام راشد مولاه بأمره وكلفه إلى أن فطن وشب فأدبه أحسن أدب وأقراه القرآن فحفظه وله من السن ثمانية أعوام وعلمه السنة الفقه والشعر وأمثال العرب وحكمها وسياستها ودربه على ركوب الخيل ورمى بالسهام ولما كمل له من السن إحدى عشرة سنة أو نحوها أخذله مولاه راشد البيعة من سائر القبائل فبويع له بجامع مدينة وليلى فى يوم الجمعة مستهل شهر ربيع الأول من سنة ست وثمانين ومائة فقد بان له من هذا أن مدة بقيه حمل أمه به بعد وفاة والدة ومدة كفالة راشد له عشر سنين وعشرة أشهر وحين أخذت له البيعة صعد المنبر فخطب الناس فى ذلك اليوم فكان مما قال الحمد لله أحمده واستغفره واستعين به وأتوكل عليه وأعوذ بالله من شر نفسى ومن شر كل ذى شر وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أرسله إلى الثقلين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً صلى الله عليه وعلى آل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، أيها الناس أنا قد ولينا هذا الأمر الذى يضاعف فيه المحسنين الأجر وللسيئين الوزر ونحن والحمد لله على قصد جميل فلا تمد الأعناق إلى غيرنا فإن الذى تطلبونه من إقامة الحق إنما تجدونه عندنا . ثم دعا الناس إلى بيعته فبايعوه بل وعظهم على التمسك بطاعة الله وطاعته ، فعجب الناس من فصاحته وبيانه ووزانة عقله وبلاغته وبراعته ثم نزل فتسارع الناس إلى بيعته

وازدحموا عليه يقبلون بديه فبايعه كافة قبائل المغرب من زنانة ووربة وصنهاجة وغمارة وسائر قبائل البربر وتمت له البيعة واستقام له الأمر بالمغرب وتوطا ملكه وكبر سلطانه وفريت جنوده وعظمت جيوشه ومما يذكر هنا أنه قال فى حال فتاله لمن عانده

أليس أبونا هاشم شدازره	وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
فلسنا نمل الحرب حتى تملنا	ولا نشتكى مما يول إلى النصب
ولا كننا أهل الحفائظ والنهى	إذا طار أرواح الكماة من الرعب

وقصدوا نحوه من كل مكان ووفدوا إليه من سائر البلدان وكان ممن وفد عليه نحو من خمسمائة فارس من إفريقية والأندلس من القيسية والأزد والخزرج ومدلج وبنى يحصب وغيرهم ،فسر الإمام إدريس بوفادهم وأجزل صلاهم وقرهم ورفعهم وجعلهم بطانته دون البربر فأعتز بهم لأنه كان فريدً بين البربر . ولما رأى الإمام إدريس أن الأمر استقام له وعظم ملكه وكثر حشمه وضاقت بهم مدينة وليلى عزم الانتقال منها وأراد أن يبنى مدينة لنفسه فيسكنها هو وخاصته وجنوده ووجوه أهل دولته فركب بعد الاستخارة فى خاصة من قومه وجال جملة من النواحى إلى أن بلغ جبل زالغ فعزم أن يبنى به مدينة عظيمة فظهر له أن الهدام تكثر فيه زمن الفيض فأنتقل لوادى سبو وعزم أيضاً أن يبنى به المدينة فظهر أن السيول تصل إليها فى زمن الفطر وما زال ترداده حيث يبنى واستشار وزيره عمير بن مصعب الأزدى ليرتاد له موضعاً للمدينة فصار عمير فى جماعة من قومه لينظر ما طلب فأخترق تلك النواحى إلى أن نزل على عين ماء مطردة فتوضأ منها هو ومن كان معه وصلى بهم حولها ثم دعى الله تعالى أن يهون مطلبه وأن يدله على موضع يرتضيه لعبادته فسميت العين به عين عمير إلى الآن ثم ركب وتوجه لحو فحصن

ســايس يطلب ما خرج إليه حتى وصل إلى العيون التى ينبع منها وادى فاس فرأى عيوناً كثيرة تزيد على ستين عنصر اطرد على رضراض حول العيون بعد أن شرب من الماء فاستطابه ثم صار مع مسير الوادى حتى وصل إلى موضع مدينة فاس فنظر إلى ما بين العدوتين فرأى غيضة ملتفة الأشجار مطردة العيون والأنهار. وفى مواضع مـنها خيام من شجر يسكنها قبيلة زنانة يعرفون بزواغة وبنى يرعس، فرجع عمير عـلى الإمــام إدريس وأعلمه بما رأى من الأرض وما أستحسنه من كثرة مياهها وطيب تربتها ورطوبة هوائها وصحتها ، فأعجب الإمام إدريس من ذلك وسأل عن ملاك الأرض ، فقيل له هم قوم من زواغة يعرفون ببنى الخير . فقال الإمام إدريس هذا قال حسن ثم بعث إليهم وأشترى منهم موضع الأرض بستة آلاف درهم ودفع لهم الثمن وأنعقد الأشهاد بينهم بذلك فى رسمٍ من انشاء كاتبه أبى الحسين عبد الله ابــن مالك المالكى الأنصارى المخزومى وذلك فى سنة إحدى وتسعين ومائة ثم أن الإمــام إدريس ضرب اخبيته وقبابه بالموضع المعروف بجرواوة من عدوة الأندلس ودور عــليه جرواوة من الخشب فسمى الموضع جرواوة إلى زمننا هذا ثم انتقل بعد ذلــك إلى الموضع المعروف بالمفرمدة من عدوة القرويين حيث دار الفيطون المتصلة لمسجد الشرفاء ثم شرع فى البناء حسبما يذكر بعد كذا ذكره ابن الرقيق وغيره .

ومــن فضــل هذه المدينة وشرفها ما نقله خلفهم عن سلفهم أنه وجد فى كــتاب دارس بن إسماعيل[1] المكنى بأبى ميمونة بخط يده رحمه الله تعالى حدثنى على ابــن أبى مطــر بالإسكندرية قــــال حدثنى محمد بن إبراهيم [2] الموازعــــن

---

(١) ورد ذكره فى عدة مصادر .

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن زياد المواز أبو عبد الله فقيه مالكى من أهل الإسكندرية انتهت إليــه رياسة المذهب فى عصره له عدة تصانيف . مات سنة ٢٨١ هــ / ٨٩٤ م .
انظر المزيد فى : شذرات الذهب ١٧٧/٢، الوافى بالوفيات ١/ ٣٣٥ .

عـــبد الـــرحمن بن القاسم [1] عن مالك بن أنس عن محمد بن شهاب الزهرى [2] عـــــن ســـــعيد بن المسيب [3] .

---

(1) هـــو عـــبد الرحمن بن القاسم بن خالد العتقى أبو عبد الله المصرى العتقى الفقيه راوية المسائل عن مالك . روى عن بكر بن مضر وابن عيينة وعدة. وعنه ابنه موسى وأصبغ ابن الفرج وسحنون بن سعيد وأخرون . قال ابن حبان : كان خيراً فاضلاً ممن تفقه على مذهب مالك وفرع على أصوله. مات سنة ١٩١ هـــ .

انظـــر المزيد فى : وفيات الأعيان ١/ ٢٧٦ ، اللباب ٢/ ١٢٠ ، العبر ١/ ٣٠٧، شـــذرات الذهـــب ١/ ٣٢٩ ، الديباج المذهب ١٤٦ ، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٥٦ ، تهذيب التهذيب ٦/ ٧١، حسن المحاضرة ١/ ٣٠٣ ، خلاصة تذهيب الكمال ١٩٧ .

(2) هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب المدنى أحد الأعلام، نزل الشـــام وروى عن سهل بن سعد وابن عمر وجابر وأنس وغيرهم من الصحابة وخلق من التابعين . وعنه أبو حنيفة ومالك وعطاء بن أبى رباح وعمر بن عبد العزيز وهما من شيوخه وابن عيينة والليث والأوزاعى وابن جريج وخلق .

قـــال ابن منجويه : رأى عشرة من الصحابة وكان من أحفظ أهل زمانه وأحسنهم ســـياقاً لمـــتون الأخبار ، فقيهاً فاضلاً . وقال الليث : ما رأيت عالماً قط أجمع من ابن شـــهاب ولا أكـــثر علماً منه . وكان ابن شهاب يقول : ما استودعت قلبى شيئاً قط فنسيته. مات سنة ١٢٤ هـــ .

انظـــــــر : تذكرة الحفاظ ١/ ١٠٨ ، تهذيب التهذيب ٩/ ٤٤٥ ، حلية الأولياء ٣/ ٣٦٠ ، خلاصـــة تذهيـــب الكمال ٣٠٦ ، شذرات الذهب ١/ ١٦٢ ، طبقات الفقهاء ٦٣، طبقات القراء لابن الجزرى ٢/ ١٦٢ ، العبر ١/ ١٥٨ ، النجوم الزاهرة ١/ ٢٩٤ ، وفيات الأعيان ١/ ٤٥١ .

(3) هـــو سعيد بن المسيب بن حزن المخزومى أبو محمد المدنى سيد التابعين . ولد فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه . قال محمد بن يحيى بن حبان : كان رأس من بالمدينة فى دهرة المقدم عليهم فى الفتوى سعيد ويقال : فقيه الفقهاء. وقال قتادة : ما رأيت أحداً=

عن أبي هريرة [1] رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنـــــــه قال : «تكون بالمغرب مدينة تسمى بفاس أقوم أهل المغرب قبله وأكثرهم صلاة وأهلها عـــلى السنة والجماعة ومنهاج الحق لا يزالون متمسكين به لا يضرهم من خالفهم يدفع الله عنهم ما يكرهونه إلى يوم القيامة» [2] .

= قـــط أعلم بالحلال والحرام منه . وكذا قال مكحول والزهرى وسليمان بن موسى . وعـــنه إن كنت لأرحل الأيام والليالى فى طلب الحديث الواحد . وقال أحمد بن حنبل: أفضل التابعين سعيد بن المسيب قيل له فعلقمة والأسود. قال : سعيد وعلقمة والأسود. وقال يحيى بن سعيد: كان أحفظ الناس لآحكام عمر وأقضيته، كان يسمى راوية عمر . وقـــال أبو حاتم : ليس فى التابعين أنبل منه ، وهو أثبتهم فى أبى هريرة . مـــــات سنة ٩٤ هـــ وقبل سنة ٩٣ هــ .

انظـــر المزيد فى : تذكرة الحفاظ ١/ ٥٤ ، تهذيب التهذيب ٤/ ٨ ، خلاصة تذهيب الكمال ١٢١، شذرات الذهب ١/ ١٠٢ ، طبقات ابن سعد ٥/ ٨٨ ، طبقات الفقهاء ٥٧ ، العبر ١/ ١١٠ ، النجوم الزاهرة ١/ ٢٢٨ .

(١) هـــو أبـــو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسى اليمانى ، حفظ عن النبى صلى الله عليه وســـلم الكثير ، وعن أبى بكر وعمر وأبى بن كعب . وعنه سعيد بن المسيب وبشير بن نهيـــك وخلق كثير. وكان من أوعية العلم ومن كبار أئمة الفتوى مع الجلالة والعبادة والتواضع . قال البخارى : روى عنه ثمانمائة نفس أو أكثر وولى إمرة المدينة وناب أيضاً عـــن مروان فى إمرتها . وقال الشافعى : أبو هريرة أحفظ من روى الحديث فى دهره . مات سنة ٥٨ هـــ .

انظـــر المزيد فى : أسد الغابة ٦/ ٣١٨ ، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٢ ، خلاصة تذهيب الكمـــــال ٣٩٧ ، شذرات الذهب ١/ ٦٣ ، طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٣٧٠ ، طبقات القراء للذهبى ١/ ٤٠ ، العبر ١/ ٦٢ ، النجوم الزاهرة ١/ ١٥١ .

(٢) متفق عليـــــــــه .

وأن أبي مطـر هو أبو الحسن على بن عبد الله بن أبي مطـــر من أولاد أبي موســـى الأشعرى[1] وكان مجاب الدعاء، توفى بالإسكندرية سنة تسع وثلاثين وثلاثمائـــة كـــذا نقل صاحب المدارك[2] ودراس رحمه الله ممن أدخل مذهب مالك

---

(١) هو أبو موسى الأشعرى عبد الله بن قيس استعمله النبى صلى الله عليه وسلم مع معاذ على اليمن ثم ولى لعمر الكوفة والبصرة وكان عالماً عاملاً صالحاً تالياً لكتاب الله ، إليه المنتهى فى حسن الصوت بالقرآن، حدث عنه طارق بن شهاب وابن المسيب وخلق . قال أبو إسحاق سمعت الأسود يقول : لم أر بالكوفة أعلم من على وأبي موسى. مات فى سنة ٤٤ هـــ .

انظر المزيد فى : أسد الغابة ٦/ ٣٠٦ ، الإصابة ٢/ ٣٥١، تذكرة الحفاظ ٢٣/١ ، خلاصـــة تذهيـــب الكمال ١٧٨ ، شذرات الذهب ١/ ٥٣، طبقات الفقهاء ٤٤، طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٤٤٢، طبقات القراء للذهبى ١/ ٣٧، العبر ١/ ٥٢، النجوم الزاهرة ١/ ١٢٦ .

(٢) هـــو القاضـــى عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض العلامة عالم المغـــرب أبو الفضل اليحصبى السبتى الحافظ . ولد سنة ٤٧٦ هـــ أجاز له أبو على الغســـانى وتفقـــه وصـــنف التصانيف التى سارت بها الركبان " كالشفاء" و "طبقات المالكية" و " شرح مسلم" و " المشارق " فى الغـــــريب و "شرح حديث أم زرع " و " التاريخ " وغير ذلك ، وبعد صيته وكان إمام أهل الحديث فى وقته ، وأعلم الناس بعلومه، وبالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم. وولى قضاء سبتة ثم غرناطة. مات سنة ٥٤٤ هـــ .

انظـــر المزيد فى : إنباه الرواة ٢/ ٣٦٣ ، البداية والنهاية ٢٢٥/١٢ ، بغية الملتمس ٤٢٥ ، تاريخ الإسلام وفيات سنة ٥٤٤، تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٠٤ ، تهذيب الأسماء والـــلغات ٢/ ٤٣ ، الديبـــاج المذهب ١٦٨ ، الرسالة المستطرفة ١٠٦ ، روضات الجنات ٢/ ١١٥ ، طبقات المفسرين للداودى ٢/ ١٨ ، العبر ٤/ ١٢٢، المعجم =

رضـــى الله عنه بلاد المغرب فإنه كان الغالب عليه فى القديم على مذهب الكوفيين إلى أن دخـــل على بن زياد [1] وابن أشرس[2] وأحمد بن بهلول بن راشد[3]. وبعدهم

= لابن الأبار ٣٠٦ ، مفتاح السعادة ٢/ ١٤٩ ، النجوم الزاهرة ٥/ ٢٨٥، وفيات الأعيان ١/ ٣٩٢ .

(١) هـــو أبو الحسن على بن زياد التونسى العبسى قيل أصله من العجم ، ولد بطرابلس ثم أنتقل إلى تونس فسكنها . سمع مالك وسفيان الثورى والليث بن سعد وابن لهيعة. سمع منه البهلول بن راشد وسحنون وشجرة وأسد بن الفرات وغيرهم . هو أول من أدخل الموطأ بإفريقية وجامع سفيان .

(٢) هـــو عـــبد الرحيم بن أشرس هو أنصارى من العرب من أهل تونس كنيته أبو مسعود وسماه المالكى العباس ، ثقة فاضل سمع من مالك بن أنس ومن ابن القاسم . روى عنه عـــبد الـــرحمن حديث الموطأ . قال سحنون : كان على بن زياد خير أهل إفريقية فى الضـــبط للعـــلم ، وكان ابن أشرس أحفظ على الرواية، وكان شديد الأمر بالمعروف والـــنهى عـــن المـــنكر. روى عنه ابن وهب وسعيد بن أبى جعفر وعمران بن هارون وغيرهم .

(٣) هـــو أبـــو عمر البهلول بن راشد من أهل القيروان . كان ثقة مجتهداً ورعاً مستجاب الدعوة ، كان عنده علم كثير . سمع من مالك والثورى وعبد الرحمن بن زياد ويونس ابن زيد وحنظلة بن أبى سفيان وموسى بن على بن رباح والليث بن سعد والحارث بن نبهان، سمع الموطأ من على بن زياد وابن غانم وسمع جامع سفيان الصغير من ابـــــن أبى الخطـــاب وأبى خارجة والجامع الكبير من على بن زياد . سمع منه سحنون وعون الجعفرى وخالد بن يزيد وأبو سنان ويحيى بن سلام وغيرهم . كان بهلول بن راشد من أهل الفضل والعلم والورع معروفاً بذلك مع العبادة والاجتهاد وقال سحنون : كان البهـــلول رجلاً صالحاً ولم يكن عنده من الفقه ما عند غيره ، وإنما اقتديت به فى ترك السلام على أهل الأهواء .

فـرات[1] وغيرهم من الحافظين لمذهب مالك فأخذهم كثير من الناس به فلم يزل ينتشـر ويظهر إلى أن جاء سحنون[2] فعظ خلق المخالفين واستقر المذهب بعده فى أصحابه فشاع فى أقطار المغرب إلى زماننا هذا .

وأما أهل الأندلس فكان رأيهم منذ أفتتحت على رأى الأوزاعى[3] إلى أن

---

(1) هو أبو سهل فرات بن محمد العبدى هو معدود من رجال سحنون وسمع منه ومن عون ابن يوسف وابن أبى حسان اليحصبى وأبى ذكرياء الجفرى وابن عبد الحكم وابن بكير ونعيم بن حماد وأصبغ بن أبى الفرج ومحمد بن فضيل .

(2) هـو أبـو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخى وغلب عليه لقب سحنون سمع بإفـريقية مـن عـلى بن زياد والعباس بن أشرس وبهلول بن راشد وعبد الله بن غانم ومعاوية الصمادحى. ثم رحل إلى الشرق سنة ١٨٨ هـ فسمع بمصر من ابن القاسم وابـن وهـب وأشهب وابن عبد الحكم وشعيب بن الليث ويوسف بن عمر. وسمع بالمديـنة مـن عـبد الله بن عبد الله بن نافع ومعن بن عيسى وأنس بن عياض وابن الماجشون والمغيرة بن عبد الرحمن ومطرف ، وسمع بالشام من الوليد بن مسلم وأيوب بـن سويد، وسمع بمكة من سفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن مهدى ووكيع بن الجراح وحفص بن غياث ويزيد بن هارون وأبى داود الطيالسى وغيرهم ولـد سحنون سنة ١٦٠ هـ ، ومات سنة ٢٤٠ هـ .

(3) هو عبد الرحمن الأوزاعى بن عمرو وأبو عمر وإمام أهل الشام فى وقته نزيل بيروت روى عن عطاء وابن سيرين ومكحول وخلق . وعنه أبو حنيفة وقتادة ويحيى بـن أبى كثير والزهرى وشعبة وخلق . قال ابن عيينة كان إمام أهل زمانه . وقـال ابـن سعد : كان ثقة مأموناً، صدوقاً فاضلاً ، خيراً كثير الحديث والعلم والفقـه ولد سنة ٨٨ هـ، ومات سنة ١٥٧ هـ .
انظـر المزيـد فى : تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٨ ، تهذيب التهذيب ٦/ ٢٣٨، خلاصة تذهيب الكمال ١٩٧ ، العبر ١/ ٢٢٧ .

رحل إلى مالك زياد بن عبد الرحمن [1] وفرعوس بن العباس[2] ومن بعدهما فجاءوا بعلم مالك وأبانوا للناس من فضله واقتداو الأئمة به فعرف حقه ودرس مذهبه إلى أن أخـــذ بـــه أمير الأندلس وهو هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن عبد الملك بن مـــروان [3] وأمـــر الناس جميعاً بالتزامهم مذهب مالك وصير القضاء والفتيا عليه وذلـــك فى العشرة بعد السبعين ومائة فى حياة مالك رحمه الله وشيخ المفتين حينئذ

---

(1) هـــو أبو عبد الله عياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون قرطبى . سمع من مالك الموطأ روى عن عبد الله بن عقبة والليث بن سعد وسليمان بن بلال وعبد الله بن عبد الرحمن وعـــبد الـــرحمن بن أبى الزناد وعبد الله بن عمر العمرى ويحيى بن أيوب وأبى معشر وموســـى بن على ومحمد بن عبد الله بن عمر الليثى والقاسم بن عبد الله وغيرهم وهو أول مـــن أدخل الموطأ فى الأندلس وعلم السنن ومسائل الحلال والحرام ووجوه الفقه والآحكام .

(2) هو فرعوس بن العباس بن فرعوس بن حميد من أهل قرطبة يكنى أبا الفضل سمع مالك والثورى وابن جريج والليث وابن أبى خازم وغيرهم . كان رجلاً متديناً فاضلاً ورعاً، كان علمه المسائل على مذهب مالك وأصحابه . مات سنة ٢٢٠ هـــ .

(3) هو هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بـــــــن مروان أبو الوليد ثانى ملوك الدولة الأموية بالأندلس ولد بقرطبة سنة ١٣٩ هـــ / ٧٥٦م وولاه أبوه ماردة وبويع بعد وفاة أبيه سنة ١٧٢ هـــ فحسنت سياسته، وكان حازماً وشجاعاً شديداً على الأعداء راغباً فى الفتح موفقاً بنى عدة مساجد، وتمم بناء جامع قرطبة. وكان أبوه قد بدأ به وكان يبعث إلى الكور من يسأل أهلها عن سيرة عماله فيها وأحبه الناس لعدله، وأهل الأندلس يشبهونه بعمر بن عبد العزيز، استمر إلى أن توفى بقرطبة سنة ١٨٠ هـــ / ٧٩٦ م .

انظر المزيد فى : البيان المغرب ٢/ ٦١ ، نفح الطيب ١/ ١٥٨، تاريخ ابـــن خلدون ٤/ ١٢٤ ، الكامل ٤٩/٦ ، أخبار مجموعة ١٢٠ ، جـــــــذوة المقتبس ١١، الحلة السيراء ٣٧، المعجب ١٩ .

صعصعة بن سلام[1] إمام الأوزاعية وقد لحق به من أصحاب مالك غيره فألتزم الناس بهذا المذهب وحملوا بالسيف عن غيره جملة وأدخل فيها قوم الراحلين بالغرباء شيئاً من مذاهب الإمام الشافعي[2] وأبي حنيفة[3]

---

(١) هو صعصعة بن سلام بن عبد الله الدمشقي أبو عبد الله خطيب قرطبة ، وأول من أدخل علم الحديث ومذهب الأوزاعي إلى الأندلس، ولد ونشأ بدمشق وأنتقل إلى قرطبة، فكانت الفتيا دائرة عليه فيها ، أيام الأمير عبد الرحمن بن معاوية وصدراً من أيام هشام، وتوفي بها سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م .

انظر التفاصيل في : جذوة المقتبس ٢٢٧ ، النجوم الزاهرة ٢/ ١٤٠ ، تاريخ ابن عساكر ٦/ ٤٢٣، البداية والنهاية ١٠/ ٢٠٩ .

(٢) انظر المزيد في : إرشاد الأريب ٦/ ٣٦٧، الأنس الجليل ١/٢٩٤، البداية والنهاية ٢٥١/١٠ ، تاريخ بغداد ٢/ ٥٦ ، تاريخ الخميس ٢/ ٣٣٥ ، تذكرة الحفاظ ٣٦١/١، ترتيب المدارك ٢/ ٣٨٢ ، تهذيب الأسماء واللغات ٤٤/١، تهذيب التهذيب ٣٥/٩ ، حسن المحاصرة ١/ ٣٠٣ ، حلية الأولياء ٦٣/٩، خلاصة تذهيب الكمال ٢٧٧، الديباج ٢٢٧ ، الرسالة المستطرفة ١٧، شذرات الذهب ٩/٢، صفوة الصفوة ٩٥/٢ ، طبقات الحنابلة ١/ ٢٨٠ ، طبقات الفقهاء ٧١، طبقات القراء لابن الجزرى ٩٥/٢، طبقات المفسرين للداودى ٣/ ٩٨ ، طبقات ابن هداية الله ١١، العبر ٣٤٣/١، الفهرست ٢٠٩ ، اللباب ٥/٢، مرآة الجنان ١٣/٢، النجوم الزاهرة ١٧٦/٢ ، الوافي بالوفيات ٢/ ١٧١، وفيات الأعيان ١/ ٤٤٧.

(٣) انظر المزيد في : البداية والنهاية ١٠٧/١٠ ، تاريخ بغداد ٣٢٣/١٣، تذكرة الحفاظ ١/ ١٦٨، تهذيب الأسماء ٢١٦/٢، تهذيب التهذيب ٤٤٩/١٠، الجواهر المضيئة ٢٦/١، خلاصة تذهيب الكمال ٣٤٥ ، شذرات الذهب ٢٢٧/١ ، طبقات ابن سعد ٦/ ٢٥٦ ، طبقات الفقهاء ٨٦، طبقات القراء لابن الجزرى ٢/ ٣٤٢، العبر ٢١٤/١، اللباب ١/ ٣٦٠ ، مرآة الجنان ١/ ٣٠٩ ، مفتاح السعادة ٢/ ١٩٥ ، ميزان الأعتدال ٤/ ٢٦٥، النجوم الزاهرة ٢/ ١٢ ، وفيات الأعيان ٢/ ١٦٣ .

وأحمد[1] وداود[2] فلم يمكنوا من نشره فمات بموتهم ألا من تدين به فى نفسه ممن لا يوبـــه بقوله وعلى ذلك مضى الأندلسيون إلى وقتنا هذا وسمى دراس لكثرة درسه العـــلم أصله من مدينة فاس سمع من شيوخ بلده وبإفريقية من أبى بكر بن اللباد[3] وغـــيره وبـــالأندلس مـــن شيوخها وله رحلة حج فيها وسمع من على بن أبى مطر بالإســـكندرية كتاب ابن المواز ، وحدث به بالقيروان سمعه منـــه أبو محمد بــــن أبى زيـــد[4] وأبو الحسن القابسى ودخل الأندلس مجاهداً وطال بها فسمع منـــه

---

(1) انظـــر المزيد فى : تاريخ بغداد ٤/ ٤١٢، تذكرة الحفاظ ٢/ ٤٣١ ، تهذيب التهذيب ١/ ٧٢ ، حـــلية الأولياء ١٦١/٩، خلاصة تذهيب الكمال ١٠ ، الرسالة المستطرفة ١٨، شـــذرات الذهب ٩٦/٢ ، طبقات الحنابلة ١/ ٤ ، طبقات المفسرين للداودى ٧٠/١ ، العبر ١/ ٤٣٥ ، الفهرست ٢٢٩ ، مرآة الجنان ٢/ ١٣٢ ، النجوم الزاهرة ٢/ ٣٠٤ ، وفيات الأعيان ١/ ١٧ .

(2) هـــو داود بن عمر و الضبى أبو سليمان البغدادى . روى عن ابن عليه وإسماعيل بن عيـــاش وجرير بن عبد الحميد وجويرية بن أسماء وحماد بن زيد وحفص بن عيـــــاث وابن عيينة . وعنه أحمد بن حنبل ومسلم وإبراهيم الحربى وأحمد بن أبى خيثمة وحجاج ابـــن الشـــاعر وابن أبى الدنيا. كان أحمد بن حنبل يأخذ لـــه الركاب . مـــات سنة ٢٢٨ هـــ.

انظر المزيد فى : تذكرة الحفاظ ١٢/ ٤٥٦ ، تاريخ بغداد ٣٦٣/٨، تذكرة الحفاظ ٤٥٧/٢، العبر ١/ ٤٠٢ .

(3) هـــو محمد بن محمد بن وشاح مولى الأقرع مولى موسى بن نصير اللخمى من أصحاب يحـــيى بن عمر وتفقه به ، وأخذ عن أخيه محمد بن عمر وابن طالب وحمد يس القطان وأحمد بن يزيد وعبد الجبار بن خالد والمغامى وأحمد بن أبى سليمان . روى عنه زياد بن عبد الرحمن القروى ومحمد بن الناظور ودراس بن غسماعيل . ثقة .

(4) هـــو أبـــو محمد عبد الله بن أبى زيد إمام المالكية فى وقته وقدوتهم وجامع مذهب مالك وشارح أقواله ، وكان واسع العلم كثير الحفظ والرواية، مات ٣٨٤ هـــ .

أبو الفرج عبدوس[1] بن خلف وخلف بن أبي جعفر[2] وكان رحمه الله من الحفاظ المعدودين من أهل الفضل والدين ممن له الإمانة بمذهب مالك وأصحابه توفى بفاس سنة سبع وخمسين وثلاثمائة وقبره بخارج باب الجيزيين معروف والدعاء عنده مستجاب وله بفاس مسجد يعرف به وقد جدد قبره الأمير أبو عنان[3] رحمه الله وجعل هنالك رخامة منقوشة بأسمه وتاريخ وفاته ونصبت عند رأسه فى سنة أربع وخمسين وسبعمائة .

---

(١) ورد ذكره فى ترتيب المدارك للقاضى عياض .

(٢) ورد ذكره أيضاً فى ترتيب المدارك للقاضى عياض .

(٣) هو فارس بن على بن عثمان بن يعقوب المرينى أبو عنان المتوكل على الله من ملوك الدولة المرينية بالمغرب . ولد بفاس الجديدة (المدينة البيضاء) سنة ٧٢٩ هـ / ١٣٢٩م ونشأ محبوباً فى قومه ، لفضله وعلمه ، وولاه أبوه أمارة "تلمسان" ثم ثار على أبيه ، وبويع فى حياته سنة ٧٤٩ هـ ، ولما مات أبوه سنة ٧٥٢ هـ ، استتب أمره فبدأ بإخضاع بنى عبد الواد وكانوا أمراء زناتة بتلمسان ، فقاتلوه فظفر بهم ودخل تلمسان وانتظم له أمر المغرب الأوسط وعصاه أخ له يدعى " ابا الفضل" فأرسل إليه من قاتله فى جبل "السكسيوى" وجبال "المصامدة" من بلاد السوس ، فأعتقل وحمل إليه فسجنه أياماً ثم أمر بخنقه فى مجلسه سنة ٧٥٤ هـ ، وقصد إفريقية سنة ٧٥٨هـ، فأنتزع قسنطينة وتونس من أيدى الحفصيين وبدت له ريبة فى إخلاص بعض قواده، فعاد إلى فاس وقتلهم. ومرض أياماً فدخل علبه وزيره الحسن بن عمر الفردودى فقتله خنقاً لسبب بطول شرحه. وقد ذكره السلاوى فى الاستقصا وقال فيه : كان جهورى الصوت. فى كلامة عجلة، عظيم اللحية تملا صدره، فارساً شجاعاً يقوم فى الحرب مقام جنده، فقيهاً يناظر العلماء، كاتباً بليغاً شاعراً له آثار من زوايا ومدارس . مات سنة ٧٥٩هـ / ١٣٥٨ م .

انظر المزيد فى : جذوة الاقتباس ٣١٤ - ٣١٦ ، الاستقصا ٢/ ٧٩ - ١٠٢، الحلل المواشية ١٣٤ .

وأخـبر ابـن التـبان أن رجلاً من أهل المغرب قال له سنه سبع وخمسين وثلاثمائة نمت بالرمادة فرأيت السماء والأرض تبكيان. فقلت ما هنا فقيل لى مات أبو ميمونة دراس بن إسماعيل[1] فكان كذلك وكان كثيراً ما ينشد :

غفلت وحارى المرب فى أثرى بحدو	وليس معى زادَ وفى سَفَرى بُعـدُ
أنعم جسمى باللباس ولينـه	وليس لجسمىَ من قميص البلابـد
كأنى به قدمد فى برزخ البـلا	ومن فوقه ردم ومن تحته لحـد
وقد ذهبت منى المحاسـن وأمتحت	ولم يبق فوق العظم لحم ولا جـلد
فكيف إذا يارب بالنـار فربت	ونارك لا يفوى لها الحجر الصـلد
عسى غافر الزلاب يغفـر زلتى	فقد يغفر المولى إذ أذنب العبـد

فقال أكثر هذا الفصل من المدارك وغيره ومن أراد الوقوف على أكثر من هـذا فليطالع كتابى المستفاد فى مناقب العباد فنرجع إلى ما نحن بصدده . ولما عزم الإمـام إدريس على بناء مدينة فاس بعد أن أخبر بتربتها وهوائها ورياحها ومائها وتحقـق بعدها من الصحراء والبحار والجبال الشامخة والسباخ العافمة . وعلم أن ذلك مما يليق بمسكنها رفع يده إلى السماء ودعا الله وقال : اللهم أجعلها دار علم وفقـه يتـلى بها كتابك وتقام بها سنتك وحدودك وأجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها .

ثم قـال : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الأرض لله يورثها من يشاء من عـباده والعاقـبة للمتقين . ثم أخذ المعون بيده وابتأ بحفر الأساس وأتبعه الفعلة فى ذلك فلم تزل دار العلم وإقامة السنة ببركة وبركة دعائه رضى الله عنه .

---

[1] انظر : القاضى عياض ٤/ ٣٩٥ – ٣٩٧ .

وذكـــر ابـــن غالب فى تاريخه أن الإمام إدريس حين عزم على بناء فاس واخـــتطاطها مـــر به شيخ كبير من الرهابين كان مترهباً فى صومعة قريبة من تلك الجهات فوقف الإمام إدريس وسلم عليه ثم قال له : "أيها الأمير ما تريد أن تصنع بين هذين الجبلين ؟ " قال : اريد أن أختط بينهما مدينة لسكناى وسكنى ولدى من بعدى يعبد الله تعالى بها ويتلى فيها كتابه وتقام بها حدوده . فقال له ايها الأمير إن لـــك عندى فى ذلك بشرى قال وما هى أيها الراهب؟ قال إنه أخبرنى راهب كان قـــلبى فى هذه الديار هلك منذ مائة سنة أنه يجددها ويحيى أثرها ويقيم دراسها رجل من آل بيت النبوءة يسمى إدريس ولها شأن عظيم وقد ر جيم لا يزال دين الإسلام فأغابها إلى يوم القيامة . فقال الإمام إدريس الحمد لله أنا إدريس وأنا من آل النبوة وأنا بانيها إن شاء الله تعالى فكان ذلك مما قوى عزم إدريس على بنائها ويدل على ذلك والله أعلم ما رواه البرنسى[1] أن رجلاً من اليهود احتفر أساس دار من قنطرة عزيـــلة مـــن المدينة المذكورة والموضع يومئذ شعراء بالطخش والبلوط وغير ذلك فوجـــد فى الأســـاس قطعـــة رخام على صورة جارية منقوش على صدرها بالخط الهندى، هذا موضع حمام عمر ألف سنة ثم خرب فأقيم موضعه بيعة العبادة فقيل إن الإمـــام إدريس لما شرع فى بنائها كان يعمل فيها بيده مع الصناع والفعلة فصنع له فـــأس من ذهب وفضة، فكان الإمام إدريس يمسكه بيده ويبدأ به الحفر ويختط به

---

(١) هـــو أحمـــد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسى الفاسى أبو العباس زروق فقيه محدث صوفى من أهل فاس " المغرب " تفقه فى بلده وقرأ بمصر والمدينة وغلب عليه التصوف فـــتجرد وساح. ولد سنة ٨٤٦ هـــ / ١٤٤٢ م وتوفى فى تكرين سنة ٨٩٩ هـــ / ١٤٩٣ م

انظرالمزيد فى : جذوة الاقتباس ٦٠ ، البستان ٤٥ – ٥٠ ، الضوء اللامع ١/٢٢٢، المنهل العذب ١/ ١٨١ ، شذرات الذهب ٧/ ٣٦٣ .

كالأساسيات للفعلة فكثر ذلك على ألسنتهم فى طول مدة البناء فكان الفعلة يقولون هاتوا الفاس خذوا الفاس أحفروا بالفاس فسميت مدينة فاس لأجل ذلك قاله صاحب الاستبصار وهذا والله أعلم . لا يصح لأن الإمام إدريس رضى الله عنه يجهل أن استعمل الذهب محرم على رجال بل يقال أنه لما شرع فى حفر أساسها من جهة القبلة، وجد فى الحفر فاس كبير طوله أربعة أشبار وسعته شبر واحد وزنته ستون رتلا من عمل الأوائل فسميت المدينة به واضيفت إليه نقل معناها المظفرى وقال لأنه لما تمت بالبناء وقيل للإمام إدريس كيف تسميها قال أسميها بأسم المدينة التى كانت قبلها فى موضعها الذى أخبرنى الراهب أنه كانت هنا مدينة أزلية من بناء الأوائل فخربت من الإسلام بألف عام وكان أسمها مدينة ساف ولا كنى أقلب أسمها الأول لا سميها به فجاء به فاس ، كذا نقله أبو الحسن بن عبد الله بن أبى زرع[1] فى كتابه المسمى بالأنيس وكان تأسيس مدينة فاس على ما ذكر المؤرخون الذين عنوا بتاريخها وبحثوا عن أمورها وأحداثها على نحو ما يذكر .

أما عدوة الأندلس فأنها أسست فى يوم الخميس مستهل شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومائة أقام الإمام إدريس منها بالموضع المعروف بجراوة حيث نزل باخبيته وقبابه وابتدأ سورها من جهة القبلة وفتح هناك باباً سماه باب القبلة ثم مر بالسور المعروف بالجرواوة وموضع زيتون ابن عطية وفتح هناك باباً سماه باب جرواوة ثم مر بالسور على الموضع المعروف بالمخفية إلى الوادى الكبير إلى برزخ

---

(١) هو على بن عبد الله أو ابن محمد بن أحمد بن عمر بن أبى زرع الفاسى ، مؤرخ من أهل فارس ، له " الأنيس المطرب وروض القرطاس" فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، ترجم إلى كثير من اللغات الأوروبية و "زهرة البستان فى أخبار الزمان" لا يزال فى حكم المفقود.

انظر المزيد فى : آداب اللغة ٣/ ٢٠٩ .

وفتح هناك باباً سماه بباب المخفية كان يقابل باب الفرج من عدوة القرويين ثم مر بالسور إلى الشيبوبة وفتح هناك باباً سماه باب الشيبوبة كان يقابل باب الفصيل المعروف الآن بباب الفقيه من عدوة القرويين ثم مر بالسور إلى رأس مجر الفرج وفتح هناك باباً سماه باب أبي سفيان ثم مر بالسور على جرواوة وفتح هناك باباً سماه باب الكنيسة يعرف الآن بباب الخوخة وبخارجه كان يسكن المرضى لتكون روايحهم تحت الريح الغربية فأنها الغالبة لفاس وليكون تصرفهم من الماء بعد خروجه من البلد ولا يصل من ضررهم شيء للمدينة ثم انتقلوا من الموضع المذكور لكهوف باب الشريعة الذى بأعلى المدينة فى زمن المجاعة وكانوا يتصرفونها فأمر بنقلهم لكهف بظاهر برج الكوكب وهو الذى فيه سكناهم الآن ثم مر بالسور إلى أن وصل باب القبلة المذكورة وقد أستدار بها السور وبنى بها جامعاً للخطبة بقرب رحبة البتر ويعرف بجامع الأشياخ .

وأما عدوة القرويين فأنها أسست فى مستهل ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين ومائة أقام بها بالموضع المعروف بالمفرمدة ويعرف الآن بدار الفيطون وبقرب مسجد الشرفاء حيث سكنى حفيد الإمام إدريس نفعنا الله بهم وحشرنا فى زمرتهم وابتدأ أسوارها من رأس عقبة عين عاو وفتح هناك باباً سماه باب إفريقية وبه يعرف الآن وجدده ووسعه الأمير المستعين فى شهر شوال سنة ستين وسبعمائة وكان حول العين هناك غيضة عظيمة يقطع فيها الطريق عبر أسود اسمه علو فرجع ذلك فلأمام إدريس وثبت عليه فأمر بصلبه على شجرة هناك إلى أن تقطعات أشلاوه فسميت العين بأسمه ثم مر بالسور إلى عين دردور إلى عقبة السعتر وفتح هنالك باباً سماه بباب الفصيل وهو الذى ذكرنا يقال له باب النقبة ثم مر بالسور من ضيرمة الوادى وفتح هناك باباً سماه باب الفرج ويعرف الآن بباب السلسلة ثم مر بالسور إلى عيون ابن الصاوى المعروفة الآن بعيون الكرازين ثم فتح هنالك باباً

سماه باب الحديد ثم مر بالسور لأعلى عقبه الجرف وفتح هناك باباً سماه باب القلعة ثم مــر بالســور حتى وصل به باب إفريقية المذكور وقد استدار بها السور ثم بنى جامعاً للخطبة متصلاً بمنزله وهو المعروف الآن بمسجد الشرفاء ولم يزل على نحوها بــنات الإمام إدريس بن إدريس إلى أن اعتلت سقفه وتخلفت أجداره وتداعى إلى الســقوط فأنتدب لبنائه من أبتغى الأجر من الله تعالى من أصهار الشرفاء الساكنين هــناك وإقامــة على ما هو عليه الآن وذلك فى سنة ثمانية وسبعمائة وكان فى أثناء ذلك أمر الناس ببناء الدور والغرس ونادى فيهم أن كل من بنى موضعاً أو أغترسه قبل تمام بناء السور فهو له هبة لله تبارك وتعالى، فيظهر من هذا والله أعلم .

أن مــن بــنى أو اغترسه بعد تمام السور أنما يكون باستئجار الأرض وهو ســبب الجــزاء فى بعــض جهاتها وقد بحث بُعض عمال فاس لم كانت دار الجزاء وبارائهــا دار حــرة لا جزاء عليها فصح عنده أن بعض المواضع يكون بها الدور والأجــنان والفنادق وغير ذلك ثم ينجلى أو يموت أهلها ولا وارت لهم فيرج ذلك لنظر العامل فى الجزاء فيجزيه ويتخلص بوجه صحيح ثم يخرب أيضاً فيجزيه العامل كــذا ذكــر أشياخنا القدماء ولما فرغ الإمام إدريس من بناء أسوار المدينة وجامع خطبــتها أنــزل القبائل الوافدين عليه من الأندلس بالعدوة الشرقية منها فسميت لذلــك عــدوة الأندلــس ونزل الوافدين عليه من القيروان بالعدوة الغربية منها فســميت لذلــك عدوة القرويين ثم أمرهم بزيادة البناء والغرس فبنى الناس الدور والمســاجد والحوانيت وغرسوا جانبى الوادى من منبعه بفحص سايس إلى مصبه فى نهــر سبو بأنواع الأشجار وحرثت سائر نواحيه بأنواع الزراعات فعمرت الأرض بالغراســة والحراثة، وظهر صلاح ذلك والانتفاع بغلاته فى سائر الأوقات وكثرت الخيــزات وزادت العمــارات وقصــدها الــناس على اختلافهم من جميع البلاد والاصــفاع وســكنها الفقهــاء والعلماء والتجار والصناع ، ولما سكنت مدينته

واستقامت رعيته وحضرته الجمعة صعد المنبر فخطب الناس ثم رفع يديه فى أخر خطبته وقال : اللهم إنك تعلم أنى ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا سمعة ولا مكابرة وأنما أردت أن تعبد فيها ويتلى بها كتابك وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ما بقي من الدنيا، اللهم وفق سكانها وقطانها للخير وأعنهم عليه وأكفهم مؤنة أعدائهم وأدر عليهم الرزاق وأغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق إنك على كل شيء قدير. فأمن الناس على دعائه فكثرت بالمدينة الخيرات وظهرت البركات وأقام الإمام إدريس ساكناً بها على سنة سبع وتسعين ومائة ، فخرج إلى غزو من بقى من الكفار بنفيس وبلاد المصامدة فوصل غليها ودخل مدينة نفيس ومدينة أغمات[1] وفتح سائر بلاد المصامدة ورجع إلى مدينة فاس فأقام بها إلى شهر محرم من سنة تسع وتسعين ومائة ، فخرج منها إلى غزو تلمسان لتكون الكلمة واحدة فى أعزاز الدين فغلب عليها وأفتتحها ونظر فى أموالها وأصلح أسوارها وجامعها الذى باقادير وصنع فيه منبراً وكتب أسمه عليه كذا نقله ابن غالب وصاحب الأنيس. وقال عبد الملك الوراق فى مقايسه دخلت جامع تلمسان فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة فرأيت فى رأس منبرها الواحاً من بقية المنبر القديم فد سمرت هناك وعليها مكتوب هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه فى شهر محرم سنة تسع وتسعين ومائة ثم رجع الإمام إدريس على مدينة فاس فلم يزل بها إلى أن توفى رحمه الله فى أول شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة ومائتين وهو ابن ثمان وثلاثين سنة وثمانية أشهر فكان أيام كفالته وبقية حمله

---

(١) هى ناحية فى بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش .
انظر : معجم البلدان ١/ ٢٩٥ - ٢٩٦ .

عشر سنين وعشرة أشهر وأيام ، إمارته سبعاً وعشرين سنة ويذكر أنه دفن بمسجد الشرفاء بإزاء الحائط الشرقى منه . وقد أنشد بعض الشعراء فى ذلك :

منازل أهل الله آل رسولـــــــه فأحبب بهم أهلاً وأحبب بهم مغنى
مدينة إدريس بـــن إدريس التى بها قبره نـــــار وقبره مبنــــى

وكـــان سبب وفاته على ما ذكر البكرى أنه أكل عنباً فشرق بحبة فمات مـــن حينه رحمه الله وخلف من الولد على ما ذكره ابن حزم [١] فى جمهرته [٢] ثلاث عشـــر ذكـــراً . إدريـــس وأحمد وعبد الله ويحيى والحسن والحسين وداود ومحمد وعيســـى وعمر وجعفر والقاسم وقيل حمزة وقيل أكثر من ذلك فولى بعده منهم محمد وهو أكبرهم ومما قيل فى محاسن فاس :

---

(١) هـــو الإمام العلامة الحافظ الفقيه أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف الفارسى الأصل اليزيدى الأموى مولاهم القرطبى الظاهرى. كان أولاً شـــافعياً ثم تحـــول ظاهـــرياً وكان صاحب فنون وورع وزهد، وإليه المنتهى فى الذكاء والحفظ، وسعة الدائرة فى العلوم ، أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه فى علوم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار. له " المحلى " على مذهبه واجتهاده، و "شرحه المحلى" و "الملل والنحل" و "الإيصال" فى فقه الحديث وغير ذلك. أخر من روى عنه بالإجازة أبو الحسن بن شريح بن محمد مات سنة ٤٥٧ هــ . انظـــر المـــزيد فى : وفيات الأعيان ١/ ٣٤٠ ، العبر ٣/ ٢٣٩ ، الصلة ٢/ ٤١٥، شذرات الذهب ٣/ ٢٩٩ ، بغية الملتمس ٤٠٣ ، تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٤٦ ، جذوة المقتبس ٢٩٠ .

(٢) نشر الكتاب بتحقيق ليفى بروفنسال ثم نشر فى دار المعارف بالقاهـــــــرة بتحقيق عبد السلام هارون .

يا فاس منك جمع الحسن مسترف | والساكنون أهنيهم لقد رزقوا
هذا نسميك أم روح لراحتنا | وماؤك السلسل الصافى أم الورق
أرض تخللها الأنهار داخلها | حتى المجالس والأسواق والطرق

وقال آخر :

بلد أعرته الحمامة طوقها | وكساه حلة ريشه الطاووس
فكأنها الأنهار فيه مدامة | وكأن ساحات الديار كؤوس

وللفقيه أبي عبد الله المغيلى[1] فى وصف فاس وهو يتشوق غليها حين ولى القضاء وهو بمدينة أزمورة [2].

يا فاس حيى الله أرضك من ثرى | وسقاك من صوب الغمام المسيل
يا جنة الدنيا التى أربت على | حمص بمنظرها البهى الأجمل
غرف على غرف وتجرى تحتها | ماء الذ من الرحيق السلسل
بساتين من سندس قد زخرفت | بجداول كالأيم أو كالفصيل
وبجامع القروى شرف ذكره | أنس تذكره بهيم تبليل
وبصحنه زمن المصيف محاسن | فمع العشى الغرب فيه استقيل
وأجلس إزاء الحضة الحسنا به | وأكرمهم بها عنى فديتك وأنهل
فأعدوة القرويين التى كرمت | لا زال جانبك المحبور معموراً
ولا سلب الله عليها ثوب نعمة | أرض تجنبت الآثام والزورا

وقال آخر :

أليس لها على البلدان فضل | عظيم القدر ليس له عنيد

---

(1) ورد ذكره وترجمة له فى البستان لابن مريم .

(2) بلد بالمغرب فى جبال البربر

انظر : معجم البلدان ١/ ٢١٦ .

ألیس ترى عباد الله طــــــرا وكلهم لمالكها عبيـــــــــد

وقــالت الحكمــاء : لا تستوطن إلا بلدة فيها سلطان قاهر وطبيب ماهر ونهر جار وقاض عدل وسوق قائم .

وقــالت الحكمــاء أيضاً : أحسن موضوعات المدن أن تجمع خمسة أشياء وهــى النهر الجارى والحرث الطيب والحطب القريب والسور الحصين والسلطان القاهــر إذ به نجاح مالها وتأمن سبلها وقد جمعت فاس هذه الخصال التى هى كمال المــدن وشرفها وزادت عليها محاسن كثيرة وساسرد منها نبذاً فمنها نهرها المعروف بنهر الجواهر الذى بأعلاها بنحو ستة أميال وهو يخرج من نحو ستين عنصر أحدها ينــبعث من جهة القبلة وبعضها من جهة الغرب مسامة لمشرق الشمس وله منظر عجيب لصفائه وانهماره على الرضاض فيجتمع ما يخرج من تلك العناصر من المياة فيصير نهراً كبيراً يجرى فى بسيط من الأرض يكاد لا يتبين جرى الماء فيه لا ستواء أرضـــه على أن ينحدر إلى البلد فينقسم فى داخلها على جداول كثيرة فيشق أكثر جهاتهـــا ويتشـــعب فى داخلها فينتفع به فى مساجدها وسقاياها ودورها وارجائها وحماماتهـــا وســقى جناتها ثم يخرج منها وقد حمل اثقالها وسائر فضلاتها وليس لهذا النهر نظير لصفائه وعذوبه مائه وصفته وبرودة عيونه فى زمن الصيف وسخانتها فى زمـــن الشتاء وهو يسخن سريعاً يبرد سريعاً وينهضم سريعاً وهذه لصفات محدودة عند الأطباء ويخرج منه الصدف الثمين الذى يقوم الجوهر ولهذا سمى نهر الجواهر ، ومن منافعه أنه يفتت الحصى التى فى المثانة ويذهب الصئبان من الرأس والقمل من الجســـد لم أغتســـل بـــه وداوم على شربه ويغسل به الثياب دون صابون فيبيضها ويكســـوها نقـــاوة ورايحة طيبة وتوجد فى السراطين المستعملة فى ألدوية وليست توجـــد فى غيره إلا نادراً ويخرج منها أنواع الحوت مثيل اللبين والبورى والسلباح

والسبوقة ذلك كله حوت لذيذ المطعم كثير المنفعة ومنها أن منها ماء العيون والأبار والأنهار فمياة العيون عذبة صافية باردة فى الصيف سخونة فى الشتاء حين يراد ذلك ومياة الأنهار بعكسها سخنة فى الصيف باردة فى الشتاء فلا يزال الماء الساخن والبارد موجودين فى كل زمان وذلك مما يعين على التطهير والتنظيف. ومنها قرب الملاحة التى عليها من مدر شر الشاطبى على وادى مكس وبينهما من المسافة ثمانية عشر ميلاً ومن العجائب فى هذه الملاحة أنها تحرث كلها بالزرع فتجد الفرادين فى وسط المسلح بخضرة ناعمة تتمايل خاماتها فضلاً من الله ونعمة وكمعدن الجص والصلصال وأنواع الحجارة والرمال وذلك على اختلاف أنواعه فتصير يصرفه الناس فى منافعهم .

ومنها خشب الأرز المجلوب لها من جبال بنى يزغة وهى بنحو الثلاثين ميلاً عنها يصل منه كل يوم أحمال كثيرة فلا يعدم فيها بوجه وقد يعمر العود منه فى الموضع الذى لا يناله الماء ألف سنة وازبدوا يعبر ولا يستاس .

ومنها الحطب الكثير الذى يدخلها من جميع جهاتها كجبل بنى بهلول فأنه يصبح كل يوم من أحمال البلوط وفحمه ما لا يوصف كثره .

ومنها المحرث العظيم الذى بأقطارها سقيا وبعلا وكثرة المجاشر ما ليس على مدينة من مدن المغرب .

ومنها بعدها من أطراف الأرض التى تخاف فيها الفتن والغارات .

ومنها اختصاصها بجميع الفواكة وأصنافها وأنواع الخضر والبقول على أختلافها وسائر نوار الأرض وأزهارها حتى لا يشد شيء من ذلك لمن طلبه منها .

ومنها أنه لا يعدم بها ولا بنواحيها صيد سوى كان سائحاً أو طائراً أو دارجاً .

ومنها قرب العيون السخنة كحمة خولان وحمة أبى يعقوب فإن فيها موفقا للأستحمام والتداوى وقد أعتنى أمير المسلمين أبو الحسن ببناء حمة خولان على وجه محكم لتتم به مصالح الناس ومنافعهم .

ومنها أن حرها وبردها ليس بشديد جداً وقد أعتدل فيها الفصلان فى أوقاتهما فيكون دخول الخريف إلى الشتاء غير متابين الهواء وكذلك كان فصل ينقل من هواء إلى هواء من زمن إلى زمن بالتدريج فلذلك لها اعتدال الهواء فى ارضها وطاب الثرى وعذب الماء وزكت الأشجار وطابت الثمار واخصبت الزروع وكثرت الخيرات وحسنت أخلاق أهلها ونضرت وجوهم وأبدانهم وأنفتنت أذهانهم وقل ما يخالف بعضهم بعضاً فى الخلقة والسور والجمال والتنظيف حتى فضلوا على غيرهم فىالعلوم والصناعات والمعروفة بأنواع التجارات .

ومنها : أن أهلها فى العادة أقل خلاف على أمرائهم وأكثر طاعة لحكامهم وولاتهم .

ومنها : قربها من وادى سبو الذى تسيل منه جميع القوارب والسفن الصغار إلى البحر الأعظم وتطلع منه إلى ملتقى واديها وقد كانت دار صنعة لا نشاء القوارب والسفن الصغار وغيرها بالموضع بالحبالات من أرض بنى عبودة التى بقرب ملتقى وادى فاس فى أيام الخليفة عبد المؤمن الموحدى [1]حين أراد أن يتوجه

---

(1) هو عبد المؤمن بن على بن مخلوف بن يعلى بن مروان أبو محمد الكوفى أمير المؤمنين مؤسس دولة الموحدين المؤمنية فى المغرب وإفريقية وتونس ، ونسبته إلى كومية " من قبائل البربر " ولد فى مدينة تاجرت بالمغرب " قرب تلمسان" سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م ونشأ فيها طالب علم ، وأبوه صانع فخار وحج ، والتقى بابن تومرت ، فتصادقا وانتهى الأمر بأن ولى ابن تومرت ملك المغرب الأقصى ولقب بالمهدى ، فجعل لعبد المؤمن قيادة جيشه، واختصه بثقته. ولما توفى المهدى اتفق أصحابه على خلافة =

لفـــتح المهدية [1] سنة أثنتين وخمسمائة كذا وجد بخط الفقيه أبي عبد الله محمد بن القاضى أحمد بن ميمون الفشتالى[2] .

= عبد المؤمن ، فتم له الأمر سنة ٥٢٤ هـــ . ثم بويع البيعة العامة بجامع " تنميلل " ودعـــى "أمير المؤمنين" سنة ٥٢٦ هـــ . ونهض للغزو والفتوح وقاتل الملثمين " بنى تاشفين" فأستأصلهم ، وقتل أخرهم إبراهيم بن تاشفين ودخل مراكش سنة ٥٤١ هـــ وجاءتـــه بيعة بعض أهل الأندلس، وأول ما وصله منها وفد من إشبيلية، وكان عاقلاً حازمـــاً شجاعاً موفقاً، كثير البذل للأموال، شديد العقاب على الجرم الصغير، عظيم الاهـــتمام بشؤون الدين، محباً للغزو والفتوح، خضع له المغربان " الأقصى والأوسط" واستولى على إشبيلية وقرطبة وغرناطة والجزائر والمهدية وطرابلس الغرب وسائر بلاد إفـــريقية ، وأنشأ الأساطيل وضرب الخراج على قبائل المغرب وهو أول من فعل ذلك هنالك، له أبنيه وآثار مجاهداً، ونقل إلى تنميلل فدفن منها إلى جانب قبر ابن تومرت .

انظـــر المزيـــــد فى / الاستقصا ١/ ١٣٩ ، تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٢٩ ، الكامل ١٠/ ٢٠١ ثم ١١/ ٢٠٩ ، الحـــلل الموشية ١٠٧ – ١١٩ ، الخلاصة الفقية ٥٥، وفيات الأعيان ١/ ٣٠١ ، بغية الرواد ١/ ٨٧ ، جذوة الأقتباس ٢٧٢ .

(١) بالفتح ثم السكون فى موضعين أحداهما بإفريقية والأخرى اختطها عبد المؤمن بن على قرب ســـــلا .

انظر مزيد من التفاصيل فى معجم البلدان ٨/ ٢٠٥ – ٢٠٨ .

(٢) هـــو محمد بن أحمد بن عبد الملك أبو عبد الله الفشتالى قاضى فاس ، من العلماء بفقه المالكية والأدب ، وأحـــــد الكتاب البلغاء فى عصره وهو الذى خاطبه لسان الدين ابن الخطيب بأبيات أولها :

" ومن ذا يعدّ فضائل الفشتالى " .

ولاه ســـلطان المغـــرب قضاء فاس سنة ٧٥٦ هـــ وكان يوجهه فى السفارة عنه إلى الأندلس، له تأليف فى " الوثائق" مات سنة ٧٧٧ هـــ . =

وكذا أمر أمير المؤمنين أبو عنان[1] بأنشاء جفنتين أثنتين بمترل خولان :

إحداهما : شيطى يجر مائة وعشرين محارباً .

والثانى : شلير يجر ستين محاربـــــــاً .

ودفعـــاً بـــوادى ســـبو إلى أن وصلا إلى معمورة سلا سنة ست وخمسين وســـبعمائة كل ذلك على يد ثقته أبي عثمان سعيد بن خرز وقد جلب لمولانا أمير المســـلمين أبي الحســـن رحمه الله من المرية بيلة من الرخام الأبيض زنتها مائة قنطار

=انظـــر : الإحاطة ٢/ ١٣٣، الدرر الكامنة ٣/ ٣٣٠ ، الرحلة الورثيلانية ٤٢٩، التعريف بابن خلدون ٦٠ – ٦١ و ٤٤٨ .

(١) هـــو أبو عنان المرينى فارس بن على بن عثمان بن يعقوب المرينى، المتوكل على الله من مـــلوك الدولة المرينية بالمغرب. ولد بفارس الجديدة (المدينة البيضاء) ونشأ محبوباً فى قومـــه، لفضله وعلمه ، وولاه أبوه إمارة "تلمسان" ثم ثار على أبيه وبويع فى حيـــاته ســـنة ٧٤٩هـــ) . ولما مات أبوه سنة ٧٥٢هـــ استتب أمره، فبدأ بإخضـــاع بنى عبد الواد (وكانوا أمراء زناتة بتلمسان) وانتظم له أمر المغرب الأوسط وعصاه أخ له يدعى " أبا الفضل " فأرسل إليه من قاتله فى جبل "السكسيوى" وجبال "المصامدة" من بـــلاد السوس ، فأعتقل وحمل إليه فسجنه أياماً ثم أمر بخنقه فى مجلسه سنة ٧٥٢ هـــ وقصـــد إفـــريقية سنة ٧٥٨ هـــ ، فأنتزع قسطنطينية وتونس من أيدى الحفصيين، وبـــدت له ريبة فى إخلاص بعض قواده، فعاد إلى فاس ، وقتلهم، ومرض أياماً فدخل عـــليه وزيره الحسن بن عمر الفردودى فقتله خنقاً، لسبب يطول شرحه . وقد ذكر الســـلاوى فى الاستقصـــا وقال فيه : كان جهورى الصوت فى كلامه عجله ، عظيم الـــلحية، تملأ صدره، فارساً شجاعاً يقوم فى الحرب مقام جنده، فقيهاً يناظر العلماء، كاتباً بليغاً شاعراً ، له آثار من مدارس وزوايا .

انظـــــــــــر : جذوة الأقتباس ٣١٤ – ٣١٦، الاستقصا ٢/ ٧٩ – ١٠٢ ، الحلل الموشية ١٣٤ .

وثلاثة وأربعون قنطاراً وسيقت من المرية بالأندلس إلى بلد العرائش إلى أن طلعت بوادى قصر عبد الكريم وجعلت منه على عجلة خشب تجرها القبائل والرؤساء إلى أن وصلت على منزل أولاد مخربة الذين على ضفة سبو الوادى المذكور ووسقت فيه أيضاً على أن وصلت إلى ملتقى وادى فاس وجعلت منه على عجل الخشب أيضاً يجرها الناس إلى أن وصلت على مدرسة الصهريج التى بعدوة الأندلس ثم نقلت منها بعد ذلك بأعوام إلى المدرسة التى أمر ببنائها إزاء القرويين وهى التى بوسط صحنها الآن وكان جبلها من المرية سنة خمس وعشرين وسبعمائة فإن قيل كيف يتوصل إلى وزنها فأعلم أن الذين جلبوها لما أرادوا تفريغها علم على الماء وفى الجفن الذى وسقت فيه ثم فرغت منه ونحن فيه قناطر من الرمل بالوزن شيئاً فشيئاً على أن بلغ الماء حد ما علم أولاً فى قاربها ثم فرغ الرمل بذلك وزنها كذا ذكر بعض الشهود الذين حضروا على ذلك ويذكر أنهم كتبوا رسماً بذلك وطواله به أمير المؤمنين أبو الحسن رحمه الله وكذلك فعل بابواب المهدية التى صنعت من حديد فى أيام عبيد الله [1] التى زنة كل واحدة منها ألف قنطار على ما ذكر البكرى وكان الأمير أبو الحسن يدفع الأحمال الكثيرة من خشب الأرز من منزل خولان إلى معمورة سلا على صفة يعلمها البحريون ونهر سبو ينبعث عن عنصر فى مغارة مهولة فى شعراء عافطة ببلاد فازاز إلى أن يمر على بلاد وارثين وهذه العين لا يدرك لها فعر وللبربر المجاورين لها تجاريب فيها .

منها : أن المريض إذا ارادوا أن يعملوا هل يبرأ أو يموت ؟ حملوه لرأس العين للموضع المهول فيغطسونه فيه حتى يقرب أن يصفر ثم يخرجونه فإن خرج

---

(١) هو عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية فى المغرب .

انظر التفاصيل فى : عبيد الله المهدى ــ للدكتور / حسن إبراهيم

طبعة النهضة المصرية – القاهرة – ١٩٥٢ م

عـــلى فيه دم يستبشرون بحياته وإن لم يخرج من فيه دم أيقنوا بهلاكه وهذا عندهم متصـــادق لا ينكر قاله صاحب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، وهذا لا يفعله إلا جـــاهل وإن فعله أحد بأحد فمات فإنه يقتص منه وما سوى ذلك من فصول هذا الباب قد يدرك بالمشاهدة والتجربة وتصيد من وادى سبو هذا الشابل الكبير وهو يطـــلع مـــن معمورة سلا إلى راس عين سبو وتصيد منه الحوت الكبير الذى يعرف بالقـــرب يكون فى زنة الواحدة منه قنطار وأزيد ويوجد فيه أيضاً الحوت المعروف بالشولى تصنع منه الألوان بأنواع النفل فلا تشم له رائحة السمك .

ومها : ميل الناس لسكانها فمنذ سكناها وهى مملوءة بأصناف الناس وأهل الكور والأمصار وأنتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية فليس من أهل بلد ولا أقلـــيم إلا ولهم بها متجر ومنزل وصناعة وتصرف وأجتمع فيها ما ليس بمدينة من مدن الدنيا وأتتها التجارات وأهل الصناعات من كل صفع حتى تكامل بها كل مـــتجر وســـيفت إليهـــا خيرات الأرض وجمعت فيها ذخائر الدنيا وتكاملت فيها بركات العالم فقد صار سكناها لأجل ذلك لا عالم أملح من عالمهم ولا رواية أثبت من روايتهم ولا متكلم أجزل من متكلمهم ولا فأرى أتقنى من قارئهم ولا طبيب أمهـــر من طبيبهم ولا كاتب أضبط من كاتبهم ولا خطيب أبرع من خطيبهم ولا واعـــظ أوعـــظ من واعظهم ولا شاعر أحدق من شاعرهم ولا صانع أصدق من صانعهم ولا قوال أطرب من مغنيهم .

الباب الثانى

فى ذكر من أدارها " فـــــاس "

بـالأسوار وذكر جوامعها وما انـتـهـت إليه من الدور والحمامات وما جاء فى الثنـاء عليها وعلى ساكنـها من العلماء المرضيين

قـــال لم تـــزل مدينـــة فاس كلاها الله تعالى من حين أسست دار فقه وعلم وصـــلاح ودين وهى قاعدة بلاد المغرب وفطرها ومركزها وقطبها وهى كانت دار الأدارســـة الحسنيين الذين اختطوها ودار مملكة زنانة وغيرهم من ملوك المغرب فى الإســـلام ونزلها لمتونة فى أول ظهورهم على المغرب ثم بنوا مدينة مراكش فأنتقلوا إليهـــا لقرب بلاد الصحراء ثم أتوا الموحدون بعدهم وأتخذوا دار ملكهم لقربها من بلادهـــم ولكونها فى جوارهم وبين قبائلهم كما قاله صاحب المقياس وغيره ومازال الأمراء والملوك فى أثناء ذلك يزيدون البناء بفاس إلى أن صار الناس يبنون بأرباض المدينـــتين واتصـــلت العمارات من كل جهة إلى إنقراض أيام زناته فأراد منهـــم دونـــاس[1] بن حمامة بن المعز بن عطية بن زيد الأسوار على جميع أرباضيها من كل

---

(١) هو أمير فاس وابن أميرها من قبيلة "مغراوة" من زناتة ، ولى فأساً وأحوازها بعد موت أبيـــه سنة ٤٤٠ هـــ وكانت أيامه أيام هدنة ورخاء وفى زمنه عظمت فاس وعمرت وقصدها الناس والتجار من جميع النواحى وأدار الأسوار على أرباضها، وبنى المساجد والحمامـــــات والفنادق فيها، فصارت حاضرة المغرب، ولم يشغل من يوم ولى الإ =

جهــة وبنى بها المساجد والفنادق والحمامات وغير ذلك وصارت مدينة واحدة إلى أن ولى بعــده أبناء الفتوح وعجيسة فحصن الفتوح عدوه الأندلس وبنى بها قصبة لســكناه بالموضــع المعروف بالكدان وفتح باباً فى العدوة سماه بأسمه وخص أيضاً عجيســة عدوة القرويين وبنى بها قصبة لسكناه بعقبة الصعتر وفتح هناك باباً سماه بأسمــه وكــانت بين الأخوين عداوة وصار القتال بينهما، وكان القتال بينهما فى الموضع المعروف بكهف الوفادين وكثر العرج بسبب ذلك فى أرض المغرب وأشتد الغلاء إلى أن ظهر لمتونة بأطراف المغرب وظفر الفتوح بأخيه عجيسة فقتله ولما ظفر بــه كره أن يبقى الباب وأمر بتغيير ذلك وترك أضافتها أيد الله ملكها خرج سور الرميــلة فى قســط اليهود لعنهم الله وأشتهر ذلك بينهم فلما تهدمت هذه القنطرة أشاع اليهود أن بناءها عليهم حسبما عليهم خفارة السور ليغتنموا أن يكون أثرها عــليهم وليحرموا المسلمين من أجرها ولم يستطع اليهود بالمبادرة لبنائها وقبح على الأمــراء أن يكلفوهم بناءها خوف أن يبقى أثرها لهم فأهل النظر فيها بسبب ذلك كــل ذلــك تلقيــناه من جملة شيوخ فاس وما زال كبير لمتونه وأميرها يوسف بن تاشــفين[1] فى زيارة المساجد وسقاياها وحماماتها وخاناتها إليه فأسقط الناس حرف

= بالبناء ، إلى أن توفى فيها سنة ٤٥٢ هــ / ١٠٦٠ م .

انظر المزيد فى : جذوة الاقتباس ١٢١، التعريف بابن خلدون ٤٥٠ .

(١) هــو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم المصالى الصنهاجى اللمتونى الحميرى أبو يعقوب أمير المســلمين وملك الملثمين سلطان المغرب الأقصى وبانى مدينة مراكش، وأول من دعى بــأمير المسلمين. ولد فى صحراء المغرب سنة ٤١٠ هــ /١٠١٩ م ، وولاه ابن عمه أبــو بكر بن عمر اللمتونى إمارة البربر وبايعه أشياخ المرابطين وجال جوله فى المغرب بجيش كبير فوقى أمره ، واستولى على مدينة فاس وغزا الأندلس، فصالحه ملوكها على الطاعة له ، واستخلفه أبو بكر بن عمر على المغرب سنة ٤٦٣هــ ، فأستقل به ، =

العين من عجيسة وأدخلوا عوضاً عنها الألف واللام فقالوا باب الجيسة وبقى ذلك إلى الآن وبعــد أن طفــر بأخيه أتاه لمتونة فنزلوا عليه وحاصروه وتخلى عن المدينة ووليهــا معنصــر ابن عمه إلى أن دخلوها لمتونه وقتلوا زنانة وفى أيام لمتونة هدمت الأســوار الــتى بأعلى الوادى الكبير بقرب حوض السفرجل والسور الذى أسفله حيــث هــى الرميلة الذى كان بناه دوناس حين أدار الأسوار على سائر أرباضها وجعــل فى ذلــك أقواســاً بشبابيك من خشب الأرز بالعمل المحكم لدخول الماء

= وبنى مدينة مراكش سنة ٤٦٥ هــ وكتب إليه المعتمد بن عباد سنة ٤٧٥ هــ من إشبيلية، يستجده على قتال الفرنج، فوصف بجموعه فكانت " وقعة الزلافة " المشهورة الــتى انكســر فيها جيش الفرنج الزاحف من طليطلة كسره شديدة سنة ٤٧٩ هــ وبايعه بعد إنتهاء الوقعة من شهدها معه من ملوك الأندلس وأمرائها وكانوا ثلاثة عشر مــلكاً، فســلموا عليه بأمير المسلمين وكان يدعى بالأمير وضرب السكة من يومئذ وجددهــا ونقش ديناره " لا إله إلا الله محمد رسول الله " وتحت ذلك " أمير المسلمين يوسف بن تاشفين" وكتب فى الدائرة : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وكتب فى الصفحة الأخرى " الأمير عبد الله أمير المؤمنين العباسى" وفى الدائرة تاريخ ضرب الدينار وموضع سكه . وعاد إلى مراكش وهو على اتصــال بإشبيلية وغيرها . ثم لم يلبث أن سير الجيوش إلى الأندلس ودخل غرناطة (فى السنة نفسها) وفيها أخر الصنهاجين " عبد الله بن بلكين " فأمتلكها وأخذ ابن بلكين معه إلى مراكش واستولى قائد جيشه "شير بن أبى بكر " على مرسيه وشاطبة ودانية ثم بلنســية وإشبيلية وبطليوس فتم له ملك الجزيرة كلها وشمل سلطانه المغربين الأقصى والأوسط وجزيرة الأندلس وتوفى بمراكش سنة ٥٠٠ هــ / ١١٠٦ م . وكان حازماً ضابطاً لمصالح مملكته، ماضى العزيمة ، معتدل القامة، أسمر اللون، نحيف الجسم ، خفيف العارضين، دقيق الصوت ، يخطب لبنى العباس .

انظر المزيد فى : الأنيس المطرب ٥ ، الكامل ٩/ ٢١٦، ١٤٥/١٠ ، جذوة الاقتباس ٣٤٢ ، تاريخ ابن الوردى ٢/ ٤٠٣ ، وفيات الأعيان ٢/ ٣٦٥ .

وخــروجه وكـــان جعل بين العدوتين قناطر للمجاز لمن فى كل عدوة إلى الأخرى، الأولى قــنطرة أبى طوبــة التى جددها الأمير أبو سعيد عثمان[1] رحمه الله . والثانية قــنطرة أبى بــرقوقة . والثالــثة قنطرة باب السلسلة . والرابعة قنطرة الصباغين . والخامســة قــنطرة كهف الوفادين . والسادسة قنطرة الرميلة وحين جاء السيل العظــيم سنة خمس وعشرين وسبعمائة حمل قنطرة السلســــلة وما بعدها فأمر أمير المؤمنين أبو سعيد عثمان ببناء قنطرة الصباغين وقنطرة باب فبنيتا على حالتهما الآن وبــنيت قنطرة الوفادين على يد من تطوع بذلك من المسلمين وبنيت قنطرة الرميلة إلى ألان، وأرجو من الله أن يكون أذخرها لهذا الملك المبارك السعيد وجعلها مــن حســناته التى يبقى أثرها ويضاعف أجرها فأنها من الحسنات الطويلة الأمتاع الكــثيرة الانتفاع وسبب أهمال الأمراء لبنائها إلى أسوار المدينة لما رتب فيها الحفار والســمار فى أيــام المخالفــة وأول هذه الدولة المرينية وإصلاح أمورها وأقدم من قرطــبة جملة من صناع فبينوا منها كثيراً إلى أن إنتهت إلى ما يذكر بعد أن شاء الله تعالى وفى أيامه صارت العدوتان قطراً واحداً وفى أيام ولده على بنى سور الفوراجة الــتى بين باب الجيسة وباب اصليتن على يد قاضيه عبد الحق بن معيشة بمال وظفه عــلى أهل فاس حسبما ذكره صاحب المقياس . وفى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

---

(1) هــو عثمان بن أحمد بن إبراهيم بن على من بنى عبد الحق أبو سعيد المرينى من ملوك الدولــة المريــنية فى المغرب وهو ثالث أفخوة الأشقاء من أبناء أحمد بن إبراهيم الذين تولــوا المــلك مــن بعده . بويع بفاس بعد وفاة أخيه عبد الله سنة ٨٠٠ هــ وكان التصــرف فى دولته للوزراء والحجاب وفى سنة أيامه استولى البرتغال على مدينة سبتة سنة ٨١٨ هــ بعد حصار طويل وازداد ضعف الدولة المرينية، واستمر أبو سعيد إلى أن قتله وزيره عبد العزيز اللبانى .

انظر : جذوة الاقتباس ٢٨٩ ، الاستقصا ٢/ ١٤٤ ، الضوء اللامع ٥/ ١٢٤ .

أمـــر الأمير عبد المؤمن بن على[1] بهدم أكثر الأسوار، كذلك إلى أن بدا ببناء ما هـــدم يعقـــوب المنصور وكمله ولده أبو عبد اله الناصر وأقام ببناء القصبة التى بالوادى واتفق أهل السلوك الذين دخلوا مصانع الملوك سائر الأقاليم أنه لا نظير لها لأجل الوادى الذى يشقها وكذلك بنى باب الشريعة على حالها الآن كما بنى أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين يوسف بن تاشفين سور زيتون بن عطية وأقام الـــبرج العظـــيم الذى هناك وكتب فيه أسمه وبفاس الآن من الأبواب باب الفتوح وبـــاب الخوخة وباب بنى مسافر وباب الجيسة وباب اصلتين وباب الشريعة وهى بـــاب يدخلها الفارس بالعلم العالى والرامح الطويل من غير أن يميل العلم ولا يثنى الرمح لارتفاعها وسميت باب المحروق من أجل العبيدى القائم بجبال وزان لما ظفر به وقتل وعلق راسه على باب الشريعة المذكورة واحرق جسده فى وسطها وذلك يوم ركـــبت مصـــاريعها بأمر أمير المؤمنين محمد الناصر بن المنصور سنة ستمائة وباب المطمر المتصلة من أبوابها بالقصبة وباب الوادى التى هى لدخول الخلفاء وخروجهم المتصـــلة أيضاً بالقصبة وباب الحديد وباب الزيتون بن عطية وباب الجيزيين المفتوح مـــنها خمســـة وســـائرها غلق فى أيام المجاعة وإنتهت مدينة فاس فى أيام المرابطين والموحديـــن من بعدهم من الغيطة والرفاهية والدقة والأمن والعافية مالم تبلغه مدينة مـــن مـــدن المغرب لا سيما فى زمن المنصور الموحدى وولده محمد الناصر وكانت

---

(1) هـــو عـــبد المؤمن بن على بن مخلوف بن يعلى بن مروان أبو محمد الكومى أمير المؤمنين مؤســـس دولة الموحدين المؤمنية فى المغرب وإفريقية وتونس نسبته إلى كوميه (من قبائل البربر) ولد فى سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م ، ومات سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م. انظر المزيد فى : الاستقصا ١/ ١٣٩ ، تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٢٩ ، الكامـــل ٢٠١/١٠ ، ٢٠٩/١١ ، الحلل الموشيه ١٠٧ – ١١٩ ، الخلاصة النقية ٥٥، جذوة الاقتباس ٢٧٢ .

المساجد بها سبعمائة وخمسة وثمانين ودور الوضوء أثنتين وأربعين وسبعين ودور السكنى تسعاً وثمانين ألفاً ومائتين وستة وثلاثين والمصارى سبعة والحوانيت تسعة آلاف وأثنتين وثمانين وقيسارية واحدة فى كل عدوة منها ودار السكة واحدة فى كل عدوة منها والأطرزة ثلاثة آلاف وأربعة وتسعين ودور عمل الصابون سبعاً وأربعين ودور الدباغين ستاً وثمانين ودور الصناع مائة وستة عشر ودور تسبيك الحديد والنحاس أثنى عشر ودور عمل الزجاج غحدى عشرة وكوش الجير مائة وخمساً وثلاثين وأفران الخبز ألفاً ومائة وسبعين وأحجار عمل الكاغيد أربعمائة كل ذلك بداخل المدينة ودور الفخارة مائة وثمانين بخارج المدينة نقل عن المشرف على ابن عمر الأوسى قال نقلته من خط ..... * مشرق المدينة فى أيام الناصر بن المنصور ..... ولو مر بالمدينة البيضاء والملاخ وما هو إلى ذلك من الكهوف مقيم الآن بفاس لكانت تنتهى لأكثر من ذلك والله أعلم . وكان إذ ذاك بجنبى الوادى الكبير من حيث يبتدئ دخوله إليها إلى أن يخرج منها دار الصباغين وحوانيتهم ودور الدباغ والصابون وحوانيت الخنافين والقصابين والسفاجين والمواضع المعدة لطبخ الغزل والفوالين وغيرهم ممن يحتاج إلى الماء وفى أعلا ذلك اطرزة للحاكة ولم يكن بالمدينة واد يظهر للناس حاشا الوادى الكبير وباقى أنهارها يبنى عليها الحوانيت والدور والمصارى ولم يكن بداخلها بستان ولا رياض عدا زيتون بن عطية وخرب أكثر ذلك فى أيام المجاعة والفتنة التى كانت فى أيام العادل وأخيه المأمون وذلك عشرون سنة إلى أن ظهرت الدولة المرينية أطال الله بقاءها فأنجبرت البلاد وتأمنت الطرق والعباد .

---

* بياض فى الأصل .

بناء جامعى
القرويين والأندلس

وأمــا بناء جامعى القرويين والأندلس وذكر الزيادة فيهما إلى هذا الوقت والحـــين فذكر أبو القاسم جنون وغيره فى تاريخ فاس أنه لما كثر الوارد ون عليهما فى أيـــام يحيى بن محمد بن إدريس [1] كان ممن قدم عليهـــــا من القيروان محمد بن عبد الله الفهرى القروى ونزل بعدة القرويين مع أهل بلده الذين وفدوا معه فمات وتـــرك بنـــتين وهما فاطمة المدعوة بأم البنين ومريم وتحصل لهما بالميراث مال كثير طيب ورغبتا أن تصرفاه فى وجوه من البر فعلمتا أن الناس قد احتاجوا لبناء جامع كبير فى كل عدوة من فاس لضيق الجامعين القديمين بالناس فشرعت فاطمة فى بناء جامع عدوة القرويين ومريم فى بناء جامع الأندلس .

---

(1) هـــو يحيى بن محمد بن إدريس بن إدريس الحسنى ملك من الأدارسة أصحاب مراكش كانت عاصمته فاس ولى بعد وفاة أخية على سنة ٢٣٤ هــ بعهد منه وحسنت سيرته وكـــان محـــباً لـــلعمران ، بنى بفاس حمامات وفنادق وأقبل أهلها على البناء فى عهده وقصـــدت من الأندلس وإفريقية وسائر بلاد المغرب، فضاقت بسكانها، فبنيت الأرباض "الضواحى" بخارجها .وفى أيامه بنى جامع القرويين توفى بفاس سنة ٢٥٠ هــ / ٨٦٤م.
انظـــــــر المزيد فى : الاستقصا ١/ ٧٦ ، جذوة الاقتباس ٣٣٤ ، تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٥ ، الأنيس المطرب القرطاس ٨ .

جامع القرويين

أمـــا جامع القرويين فكان الشروع فى حفر أساسها والأخذ فى أمور بنائها يـــوم السبت مستهل شهر رمضان المعظم سنة خمس وأربعين ومائتين وكان موضعه الـــذى بنى فيه أرض لعمل الخضر وفيه أشجار لرجل من هوارة كان قد جاز ذلك أبـــوه بوجـــه صحيح اسست المدينة فأشترتها منه فاطمة المذكورة ودفعت ثمنها من مالها الحاصل لها من إرثها من أبيها وتطوعت ببناء الجامع المذكور فحضر فى أرضه وأخذ مننها التراب والكدان لبنائه وحفر بها بئر لأخذ الماء لبنائه ونصبت قبلته على نحـــو قبلة جامع الشرفاء الذى أسسه الإمام إدريس رضى الله عنه بعد مشورة أهل العلم واجتهادهم فى ذلك وبنى من أربع بلاطات من قبلة الوجوه فى كل بلاط أثنى عشـــر قوســـاً مـــن شرق على غرب وجعل محاربه بمقدار البلاط الذى أمام الثريا الكبرى الآن وجعل مؤخرة صحن صغير بمؤخرة صومعة حيث العنزة الآن وتم على نحو ما اراته وذلك بمطالعة الأمير يحيى ثم صلت فيه وشكرت الله تعلى الذى وقفها لذلـــك ولم يـــزل على نحو ما بنى فى أيام الأدارسة إلى أن كثرت العمارات واتصل البـــناء فى أربـــاض المدينة من سائر الجهات وجرى زناتة بأرض المغرب سنة سبعة وثلاثمائة فأزيلت الخطبة من جامع الشرفاء لصغره وأقيمت بجامع القرويين لاتساعه وكـــبره وصـــنع له منبر من خشب الصنوبر، وكان أول خطيب خطب به الشيخ الصـــالح أبـــو عبد الله محمد بن على الفارسى، وقيل سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وأن الـــذى أقام الخطبة إذ ذاك هو الأمير حامد بن أحمد الهمدانى [1]عامل عبيد الله

---

[1] ورد ذكره فى اتعاظ الحنفا للمقريزى .

الشـــيعى عـــلى بعـــض بلاد المغرب بعد إن كان تغلب عليها مصالة بن حبوس[1] القـــائم بدعوة الشيعى على بعض بلاد المغرب، ولم يزل ذلك على أن تقوى ظهور زناتـــة بالمغـــرب لاستدعاء الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد ملك بر الأندلس لكبرائهم ورؤسائهم وبانتشار وصاياه ووصله الأخبار منهم ولهم ومهادأتهم واكرام ســـاداتهم وقضـــى ما فاتهم وحيل أهل الطاعة على أهل المعصية منهم ممراً لمن عجز رجالـــه فويا لمن ضعف بماله إلىأن هدت إليه افئدة كثير منهم بين مصحح فى ولايته ومســـتجيب لدعوتـــه ومغتنم لعطيته مستعين بقوته على مدافعه من قاهر ركنه من الأدارسة والشيعة فقام زناتة بدعوة الناصر لدين الله وتغلبوا على بعض بلاد المغرب وبايعـــه أهل مدينة فاس فى من بايعه حسبما ذكره صاحب المقتبس[2] فولى عليهم عـــاملاً له من زناتة يعرف بأحمد بن أبى بكر بن أحمد بن أبى سعيد الزناتى وكان من

---

(1) هو مصالة بن حبوس المكناسى أمير بربرى ، كانت له رياسة " مكناسة" القبيلة وبلادها، فى الشطر الثانى من المائة الثالثة الهجرية، وعظم أمرها فى أيامه فتغلبت على قبائل البربر بأنحاء تازا إلى الكاى ولما استولى عبيد الله المهدى على المغرب الأوسط وزحف مصالة إلى المغـــرب الأقصى سنة ٣٠٥ هـــ واستولى على فاس وعلى سجلماسة واستنزل يحيى ابن إدريس من إمارته بفاس إلى طاعة عبيد الله وأبقاه أميراً على فاس. وعقد لابن عمه موســـى بن أبى العافية أمير بلدة مكناس على سائر ضواحى المغرب وأمصاره وقفل إلى القيروان فقتله محمد بن خزر الزناتى سنة ٣١٢ هـــ / ٩٢٤ م .

انظر المزيد فى : تاريخ ابن خلدون ٦/ ١٣٤ ، البيان المغرب ١/ ١٩٧ .

(2) هو حيان بن خلف بن حسين بن حيان الأموى بالولاء أبو مروان مؤرخ بحاث من أهل قرطبة كان صاحب لواء التاريخ فى الأندلس أفصح الناس بالتكلم فيه وأحسنهم تنسيقاً له . من كتبه " المقتبس فى تاريخ الأندلس " ولد سنة ٣٧٧ هـــ / ٩٨٧ م ، ومات ٤٦٩ هـــ / ١٠٧٦ م .

انظر المزيد فى : وفيات الأعيان ١/ ١٦٨ ، جذوة المقتبس ١٨٨ .

أهـــل الفضل والدين فكتب إلى الناصر ليستأذنه فى بناء الجامع وإصلاحه والزيادة فيه لحاجة الناس لذلك فأذن له وبعث له بمال كثير من أخماس غنائم الروم وأمره أن يصـــرفه فيه فأصلحه وزاد فيه أربعة بلاطات من الغرب وخمسة من الشرق وثلاثة مـــن الجـــوف فى موضع الصحن الذى كان فيه بلاط واحد بعد أن هدم الصومعة الـــتى كانت به لكونها متطاولة الأشراف وبناها وهى الصومعة التى بالجامع الآن .
ولمـــا شرع فى بنائها جعل سعة كل وجه منها أحد وعشرين شبرا ويصعد لها على مائة درجة ودرجة وجعل بابها من جهة القبلة وغشيت بعد ذلك بصفائح النحاس الأصـــفر وتم العمل فى بنائها على يد أحمد بن ابى بكر الزناتى فى شهر ربيع الأول مـــن ســـنة خمـــس وأربعين وثلاثمائة حسبما كتب فى التربيعة المنقوشة بها من جهة الصحن وجعل فى أعلاها قبة صغيرة ووضع فى دوراتها تفافتح مموهة بالذهب فى زج مـــن حديد وركب فى الزج المذكور سيف الإمام إدريس بن إدريس رحمه الله الذى أسس المدينة وسبب جعله هنالك أن الأمير أحمد بن أبى بكر المذكور، ولما فرغ من بنائها اختصم إليه بعض حضرة الإمام إدريس فى السيف المذكور وطلب كل واحد منهم أن يمتاز به ويحوزه لنفسه وطال النزاع فيه قالوا وما تصنع به إذا تركناه لك .
فقـــال لهم أجعله فى أعلا المنارة تباركاً به وليكون لكم ذكر بسببه فقالوا قد وهبناه لـــك من طيب أنفسنا فجعله فى دوره الصومعة وجعل تحت القبة المذكورة قبة أكبر مـــنها الجـــلوس المؤذنين لا شاعة الأذان فى أوقاته وكان فيها بيت الراعى منهم لاوقات الليل واتصداع الفجر إقامة الأذان وبنائه يقتدى المؤذنون بصوامع المدينة يخلدونه على العادة المتنقلة من قديم الزمان ولهم بمواضع منها بلاطة رخام موضوعة هـــنالك بالحكمـــة وفى وسط كل بلاطة قائم يستدل بصدود ظله على خطوط فى الـــبلاطة بطـــول أزمان النهار ومرور ساعته وقد نصبها أهل العلم بالهيئة عن نظر وموافقة وهى لهم فى أفضل الهدايات وفى عطفات أدراجها سرج زاهرة الضياء يمر

عليها الليل كله يستعان بها أيضاً لرعى الفجر واجزاء الليل ولم تزل كذلك إلى أن ولى القضاء بالمدينة الفقيه الخطيب أبو عبد الله محمد بن أبى الصبر أيوب بن كنون . فعمـــل فى أيامه المعدل أبو عبد الله محمد بن الحباك بدنا من الفخار بالقبة العليا فيه المـــاء وجعل على وجه الماء مجرى من نحاس فيه خطوط وثقات يخرج منه الماء بقدر معـــلوم إلى أن يصـــل الخطـــوط ، فيعلم بذلك أوقات الليل والنهار فى أيام الغيم ولياليها وذلك فى سنة خمس وثمانين وستمائة ثم غفل عنه وأهمل .

وفى الســـنة المذكورة شرع فى إصلاح الصومعة المذكورة وتبيضها بالحض والجير بعد أن سمر فيها من خارجها ثلاثة قناطير وربغ قنطار ونصف ربع قنطار من مسامير الحديد ودلكت بعد تبيضها حتى صارت كالمرأة المسفولة بعد إن كان الطير على الصحن وانتقل إليها بيت المرعى للأوقاف وجلوس القومة بها .

وأما المبخانة التى صنعت فى هذه الغرفة لمعرفة الأوقات فإن الشيخ المعدل أبـــو عـــبد الله محمـــد الصـــنهاجى أحدثها هنالك ورسمها له أبو عبد الله محمد بن الصـــدينية الفرســـطونى وتطـــوع بعـــض المسلمين بالأنفاق فيها سنة سبع عشرة وســـبعمائة وذلك أنه جعل فى ركن الغرفة عن يسار المستقبل مجناً من خشب الأرز وجعـــل فى داخلـــه بدنين كبيرين من فخار أحدهما أعلى من الأخر وجعل الماء فى الأعـــلى مـــنهما وبأســـفله أنبوب من نحاس محكم العمل يهبط منه الماء فى البدن الأســـفل بقـــدر معـــلوم وجعل فى طرف الجنح مفطساً وجعل فى جانبى التفطيسة مرسوماً فيهما أيضاً الساعات ودفائفها وأوقات الليل والنهار وجعل المسطرة معلقة فى [1]. . . . . خارجـــاً من الجنح يجرى فى حفر التفطيسة طالعاً وهابطاً وجعل على وجـــه الماء الذى يجتمع فى البدن الأسفل حسبما مجوفاً من نحاس على هيئة الأطرقة

---

[1] بياض فى الأصـــــــــــل .

معــلقاً فى الطرف الداخلى علىالعلو فغذا طلع الجسم بطلوع الماء الذى يجتمع فى البدن الأسفل طلع طرف [1] . . . . الخارج من الطفيسة وطلعت بطلوعه المسطرة كمـــا كانت ثم غفل عنها وأهملت إلى أن تقدم للنظر فى الأوقات أبو عبد الله محمد ابـــن العربى سنة سبع وأربعين وسبعمائة فجدد المجانة على وجه الاتقان أفضل من الأول ولم يـــزل يجـــتهد فى ذلـــك إلى صـــدر إيالة مولانا أبي عنان رحمه الله فأكثر الاجـــتهاد فى خدمته وجعل خارج الجنح المذكور قبلة المستقبل دائرة وعليها شبكة الأســـطرلاب ورسومه تدور ومتى طلعت المسطرة المذكورة يعرف بها أيضاً أوقات الـــليل والنهار وأعد هناك مع ذلك رمليات لاختبار الأوقات وجملة الاسطرلابات فوقف ذلك على من ينظر فيه أجزاء الليل والنهار وصعد مولانا أبو عنان رحمه الله الصومعة ليعتبر فى المدينة وترتيبها ووقف المجانة وما أتصل بها فأستحسن ذلك وأنعم على الناظر فيها بمرتبة وسع الله عليه ليستعين به على القيام بشرائع الإسلام وذلك فى ســـنة تسع وأربعين وسبعمائة ، وأمر بأثر ذلك أن تجعل بأعلا الصومعة المذكورة صارية ينشر فيها علام فى أوقات صلاة النهار فنار فيه سراج زاهر الأوقات صلاة الـــليل ليســـتدل بذلك من بعد عن المدينة ولم يسمع النداء وفى ذلك اعتناء بأمور الأوقـــات وبمـــا يتعلق بها من وجوب الصلاة وما يترتب عليها من الحقوق ووجوه العادات والعبادات . ها أبيـــــــات فى ذلك :

نور به علم الإيمان مرتفـــــــــع	للمهتدين به للحق من بشــــــر
يأتون من كل أوب نحوه ولهـــــم	مبينا لا نسلاخ الليل عن نهـــار
روح من الماء فى جسم من الصفر	مولد بلطيف الحسن والنظـــــــر

(١) بياض فى الأصـــــــــــل .

مستعبر لم يقف عن عينه أبـــدا ولم يبت من ذوى ضغن على حذر

وفى أعاليه حسبان يفصـــــله للناظرين بلا ذهن ولا فكـــر

إذا بكى دار فى احشـــائه فلك . حنا فى المسير وإن لم يبك لم يدر

مترجم عن مواقيت يخبرنـــا بها فيوجد فيها صادق الخبـــر

تقضىبه الخمس فى وقت الوجوب وإن غطى على الشمس ستر الغيم والمطر

وإن سهرت الأوقات تورفـــا عرفت مقدار وقت السمر والســهر

محدد كل ميفـــــات تخيره ذوو التمييز للأسفار الحضـــر

مخرج لك بالأجزاء ألطفهـــا من النهار فوت الليل والسحر

نتيجة العلم والأفكار صـــورة يا حبذا أبدع الأفكار فى الصور

وقـــد صـــنع أبو عنان رحمه الله مجانة بطيسان وطسوس من نحاس مقابلة لباب مدرســـته الجديـــدة التى أحدثها بسوق القصر من فاس وجعل شعار كل ساعة أن تســـقط صـــنجة فى طاس وتنفتح طاق وذلك فى أيام آخرها الرابع عشر لجمادى الأولى مـــن عـــام ثمانيـــة وخمسين وسبعمائة على يد موفقته الحسن على بن أحمد التلمسانى المعدل .

وأمـــا القبة التى بأعلى العنزه فإنه لما تغلب المظفر بن المنصور بن أبى عامر حاجب هشام المؤيد على بدينه فاس بعد مناوشته سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة بنى القبة المذكـــورة ونصـــب أعلاها طلسمات وتماثيل كانت قبل ذلك على رأس القبة التى كـــانت باطلاً المحراب الأول بالجامع المذكور مما صنعه الأوائل ومنه ما صنع فى أيام الشيعة فجعل الطلمسات على أعمدة من حديد منها طلسم الفأر على صورة الفأر فكان الفأر لا يدخلها أبداً ولا يعشش فيها وإن دخلها أفتضح وقتل، ومنها طلسم العقـــرب وهـــو على صورة طائر فى سقاره شبه ذنب العقرب فكانت العقارب لا تدخـــلها أبـــداً وإن دخلت أفتضحت وإن دخلت فى ثوب أحد خمدت لا تتحرك

وفيهـــا طلســـم فى طفافيح من نحاس للحية فلا تدخلها حيه وإن دخلت أفتضحت وقتلت وما يوجد فيه من الحيات فهى من عمار الجن وهذا لا ينكر لأن الله سبحانه وتعـــالى أجرى عادته فى ارتباط بعض الأشياء ببعضها إذا كانت فى وقت مخصوص ولا يعلم قط على قديم الزمان وحديثه من لدغته عقرب ولا حية وقد تعطل ذلك كلــــه مـــنذ أعوام { وسنين * } والبيله المستطيلة عن يسار الخارج من باب الجفاة الجوفية فإن المظفر بناهما وجلب الماء إليهما من وادى حسن الذى بأعلا المدينة من ناحيـــة باب الحديد وأما الذى صنعه المظفر بن المنصور (١) بعد المنبر الذى صنع فى أول ظهور زنانة فكان من عود الأبص والعناب وغيرهما وكان مكتوباً عليه :

---

* إضافـــــة من عندنــــــــا .

(١) هـــو عبد الملك المظفر بن محمد المنصور بن عبد الله بن أبى عامر المعافرى أبو مروان ثانى أمراء الأندلس من الأسرة العامرية. كان فى أيام أبيه (المنصور) ينوب عنه فى الحجابة للمؤيد الأموى (هشـــام بن الحكم) بقرطبة ثم كان مع أبيه فى غزوته التى مات بها (فى مدينة سالم) ولما شعر أبوه بدنوّ أجله رده إلى قرطبة وأوصاه بضبطها فأسرع إليها وجاء نعى أبيه ، فدخل على المؤيد فأخـــبره . فخلع عليه وكتب له بولاية الحجابة مكان أبيه سنة ٣٩٢ هـــ . فقام بأمور الدولة كبيرها وصغيرها وأسقط غن البلاد سدس الجباية، وتلقب بسيف الدولة " الملك المظفر بالله " وعاد المؤيد إلى انزوائه . أحبه أهل الأندلس وأزدهرت البلاد فى عهده حتى قالوا عنه : إنــــــه " لم يولد بالأندلس مولود اسعد منه على أبيه وعلى نفسه وحاشيته وبلاده " وكان أشد الناس حيـــاءاً ، فغـــذا دخل الحرب فهو أسد ، حطماً وشدة وكان داهية حازماً ولى الحجابة ـــ بل الإمارة أو السلطة المطلقة ـــ وملوك الإفرنج يرتقبون الخلاص من أبيه ، ويتحفزون لنقض ما كان بينهم وبينه من مسالمة فى الثغـــــــــور، فجهز الجيوش وقاتل من قاتله ، فهابوه وحضر أحدهـــم شانجــــــــــــــه Sanche III Le Gland إلى قرطبة مسالماً سنة ٣٩٤ هـــ فأصـــطحبــه عـــبد الملك معه فى اقتحامه جليقـــه Galuce وظل على المسالة بعد ذلك باســـتعداده لحربه ، فسابقه بالغزو سنة ٣٩٧ هـــ وقهره وعاد إلى قرطبة. وكان قليل بضاعة العلم، فلـــم يكن للأدب فى أيامه ما كان له فى أيام أبيه . وقال ابن حيان : كان مـــائلاً إلى=

" بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم هذا ما أمر به الخليفة المنصور سيف الإسلام عبد الله هشام المؤيد بالله أطال الله بقاؤه على يد حاجبه عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر وفقهم الله تعالى " وذلك فى ثمان وثمانين وثلاثمائة فكان يخطب عليه على أيام على بن يوسف بن تاشفين فترك صنع الذى بها الآن على يد قاضيه أبي محمد عبد الحق بن عبد الله بن معيشة الغرناطى ولم يتم فى ايامه وتم بعد صرفه عن قضاء فاس على يد القاضي بعده أبي مروان عبد الملك بن بيضاء القيسى وصنع من عود الصندل والأبنوس والتاريخ والعناب وعظم العاج والذى صنعه ونجره الشيخ الأديب ابو يحيى العتاد وكان ممن عمر عمراً طويلاً حتى زاد على المائة سنة ، وكان إماماً فى اللغة والشعر وروى عنه جملة من أهل فاس وغيرها ، وكان جملة النفقة فيه مال الأحباس المستخرج من الوكلاء عليه ثلاثة آلاف دينار وثمانمائة دينار وسبعة أعشار دينار فضة وكان له غشاءان أحدهما من جلد معزى والثانى من خيرة كتان يزالا عنه فى كل يوم جمعة، وذلك فى شعبان سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة حسبما كتب على ذروته بالعاج .

= مجالسة الجفاة من البرابر والإفرنج، منهمكاً فى الفروسية وآلاتها إلا أنه تمسك بمن كان يألفهم أبوه " من خطيب وشاعر ونديمن وشطرنجى ومعدل وتاريخى وغيرهم " كما يقول ابن بسام : وقررهم على مراتبهم ولم ينقصهم سوى الأختلاط به وحضور مجالس أنسه فى جملة خاصته، وكان محباً لإظهار أبهة الملك والتأنق فى مراكبه هو واصحابه، بحلى الفضة الموصعة بالذهب ، وفيه ميل إلى اللذات ، غزا الإفرنج سبع غزوات ومات فى السابعة منها بمنزلة أم هانئ بمقربة من أرملاط Guadimellato بعلة الذبحة وقيل مسموماً سنة ٣٩٩ هـ ، قال ابن عميرة : كانت ايامه أعياداً .

انظر المزيد فى : جذوة الاقتباس ٢٧١، المغرب ١/ ٢٠٧، الذخيرة م ١ ج ١ ٥٥-٦٦ ، البيان المغرب ٣/٣ ، بغية الملتمس ١٠٦ .

الخطباء والأئمة

بجامـــــع القرويين

والخطـــباء الذيـــن خطـــبوا فيه عند صنعه فى أخر دولة لمتونة وفى الدولة الموحدية وصدر الدولة المرينية أطالها الله تعالى إلى زماننا هذا أولهم الخطيب أبو محمد المهدى بن عيسى وكان من أحسن الناس خُلقاً وخَلقاً وأفصحهم لساناً وأكثرهم بيانـــاً وكـــانت موعظته تؤثر فى القلوب والأخلاق وكان يخطب فى كل يوم جمعة خطـــبة لا تشـــبه أخرى فأقام يخطب مدة خمسة أشهر ثم دخل الموحدون المدينة فصـــرفوه عن الخطبة وقدموا مكانه الفقيه الصالح أبا الحسن بن عطية لأجل حفظه اللسان البربرى لأنهم كانوا لا يقدمون للخطبة والإمامة إلا من كان يحفظ التوحيد باللســـان الـــبربرى فخطـــب به إلى أن توفى فى ثامن ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وخمســـمائة فخطب بعده الفقيه الصالح الورع أبو محمد يشكر بن موسى الجراوى وهـــو أحـــد أشياخ المغرب فى الدين والفضل والزهد والورع والمجاهدة والتقشف والإيثار والصدقات كثير والقيام بالليل لاسيما فى رمضان قيل له ذات ليـــــلة لـــو روحت نفسك قليلاً وأعطيتها حظها من النوم لكان أرفق لك . فقـــــال : أنما أطلب راحتها فى الآخرة ثم أنشد :

لا تجعلن رمضان شهر فكاهـــــة	تلهيك فيه من الحديث فنونـــه
وأعلم بأنك لا تنال ثوابـــــه	حتى تكون تصومه وتصونـــه

وروى عـــنه أن أحـــد عمال الموحدين بفاس كتب لمراكش أن أبا محمد يشـــكر كان يدعو للخلافة فوصل الخبر بذلك إلى الخليفة فى حال خروجه فبعث

من حينه فأن يشخص وكان من الواقفين بين يديه أحد الصقلب وبيده طبرزين من حديــد فــأخذه منه وأمسكه بيده وقال لمن حضر بهذا اقتله فقدر أنه ضرب جبهة نفسه بطرق الطبرزين فأنبعث من الضربة دم كثير فبادر الأطباء بقطع دمه . بجملة من الأدوية وأنواعها فلم ينقطع وكان ممن حضر عند الخليفة أحد الصلحاء فتفرس فى ذلــك وقــال للخليفة: إن كنت هممت بسوء فتب منه فتذكر غشسخاص أبى محمد يشكر فتاب من ذلك وبودر برد الذى بعث لاشخاصه فأنقطع الدم من حينه وكان له نفعنا الله به غنم وماشية كثيرة ببلاده التى نشاء بها ورثها عن أبيه ، وكان متصــدقاً بكثير منها وكان يؤم ولا يخطب لأنه كان أعجمى اللسان شديد العجمة فقــدم ليــنوب عنه فى الخطبة خطيباً الفقيه الزاهد أبا عبد الله بن زيادة الله المزنى وانفــرد بالإمامــة ثم توفى أبو عبد الله بن زيادة الله فى ثالث وعشرين من جمادى الأولى ســنة اثنــتين وسبعين وخمسمائة ، فخطب بعده الفقيه أبو القاسم بن حميد بأســتخلاف أبى محمــد يشكر له فى ذلك ، وتوفى أبو القاسم بن حميد يوم الأثنين الرابع عشر لشهر رمضان سنة إحدى وثمانين وخمسمائة فخطب بعده الفقيه الصالح الــورع أبو عمران موسى المعلم لكتاب الله تعالى باستخلاف أبى محمد يشكر له فى ذلك وكان أبو عمران هذا يعلم الصبيان بالمكتب الذى بقنطرة أبى رءوس وكان فى الخطــبة داخلته دهشة وأطلق صبيانه ثم أخذ فى البكاء والدعاء وقال : اللهم لا تفضحنى بين عبادك يا أرحم اراحمين ولما نادى المؤذن يوم الجمعة لبس أحسن ثيابه، وســار إلى الجــامع فقعد فى حجرته حتى خلا الأذان فقام وخطب ولم يتوقف ولم يتلجــلج ثم دخل المحراب، فأتى بالحكمة وفصل الخطاب فى قراءته فبكى كل من حضــر فلما تمت الصلاة أقبل الناس إليه يقبلون يديه ويتبركون به ولم يزل خطيباً عــلى أن وصل الفقيه القاضى أبو محمد عبد الله بن ميمون الهوارى فكان أول سؤاله لأهــل المدينة عن خطيب جامع القرويين فذكر له فيه خير وأثنى عليه كثيراً ، فلما

جاءت الجمعة راءه فلم تعجبه صورته واستشنعها وقال فيه فولاه فقال له بعض من حضره لو سمعت خطبته لا عجبك فلما سمع خطبته بكى وطلب منه المغفرة والدعاء وكـان سريع الدمعة كثير الخشوع الغالب عليه فى أحواله الخوف، وتوفى أبو محمد يشكر فى الحادى والعشرين لذى القعدة سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، وأقام أماماً بجامع القرويين أربعين سنة لم يسه فى ذلك لشدة حضوره فى صلاته ولم يترك عقباً ، وبنو يشكر الذين بفاس الآن ليسوا من عقبه وأنما اشتركوا فى الأسم وأجتمع لأبى عمران الخطبة والإمامة إلى أن توفى فى عشرين من صفر سنة ثمان وتسعين وخمسمائة فخطب بعده ولده الفقيه أبو محمد عبد الله وسنة يوم ولى ثمان عشرة سنة وكان له حظ وافر من الجمال والعلم والدين والفضل والورع وحسن الصورة لم يكن لـه صبوة فى صغره ولم يزل مشتغلاً بطلب العلم منقطعاً للعبادة ولما مرض والـده أبو عمران قيل له أستخلف ولدك للصلاة فقال أن علم الله فيه خيراً فهو يستخلفه فـلما تـوفى أبو عمران وحمل على قبره ووضع على شفيره للصلاة رضى الناس بالـبكاء وطلب من يصلى عليه ، فقال قاضى البلاد لولده : تقدم فصل على أبيك فتقدم وصلى عليه وأنصرف الناس وقدم فى موضع أبيه وأستحسنه الناس، ولما أتى الناصـر بـن المنصور إلى مدينة فاس بعث إليه ليراه فوصل إليه وسلم عليه وبقى يحادثـه إلى وقـت الظهـر ، فقال له قم فصل بنا ثم قال له الناصر من تركت فى موضعك للصلاة بالناس فقال تركت من هو خير منى وهو معلمى الذى قرأت عليه القرآن وذلك لأنه لما وصلنى رسولك تخيرت فى أمر من يتقدم لذلك فقلت لا أعلم مـتى يكون الرجوع هل بالقرب أو بالبعد ثم تذكرت قول الرسول عليه السلام " مـولاك مـن علمك آية من القرآن فأعلمته بالقضية وأستخلفه فى مكانى فقال له الناصـر جزاك الله خيراً ثم أمره بالأنصراف وأتبعه مملوكاً بجملة ثياب وصرة فيها ألـف ديـنار فرجع إلى الناصر وشكره ودعا له وقبل منه الثياب واستعفاه فى أمر

الدنــانير فأعفاه ولم يزل خطيباً وإماماً إلى أن توفى فى يوم الحادى عشر لرجب سنة إحــدى عشر وستمائة فخطب بعده الفقيه أبو محمد عبد الله القضاعى المشار إليه بأســتخلاف وقــت مرضــه فأنتقد عليه وطعن الناس فيه أنه يبعث صبيان مكتبه للنساء وطالع فى ذلك من له النظر العام فقال إن الذى قدمه للصلاة أقر بين يدى الناصــر أمير المؤمنين أنه خير منه فأتركوه على حاله فترك أبو محمد المكتب وصار معتكفاً فى الجامع ويسكن فى الدار الموفقة على أئمة الجامع إلى أن توفى يوم الخميس الثانى والعشرين من رمضان سنة خمس عشرة وستمائة فخطب بعده الفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الشبلى وكان من أهل العلم والدين والفضل وكان له صــوت حسن ومعرفة بالأوقاف، توفى سنة تسعة وعشرين وستمائة فخطب بعده الشيخ الفقيه الصالح الحاج أبو عبد الله محمد بن عبد الله المدعو بالخطيب توفى سنة خمــس وثلاثين وستمائة ، فخطب بعده الشيخ الفقيه الصالح الورع أبو محمد عبد الغفــار ستة أشهر وتأخر لنفسه وكان سبب تأخره أن أحد الحساد أشاع عنه أنه يــنون السلام، فيقول السلام عليكم وبلغه ذلك فأستدعى جماعة من وجوه المدينة وقــال لهم إنه بلغنى أنه يقول أنى أنون السلام وبالله ما فعلت ذلك قط ولا كنكم أنظــروا لأنفسكم من يكون عوضاً عنى وبالله الذى لا أله إلا هو لا تقدمت بأحد أبــداً فخطب بعده الشيخ الورع أبو الحسن على المعروف بابن الحاج يحكى أنه لما تأخر أبو محمد عبد الغفار رغب الناس فى الشيخ الصالح أبى محمد عبد الله القشتالى أن يــنظر لهــم خطيب فوعدهم أن يستخير الله تعالى فى من يصلح لذلك فرأى فى مــنامه النبى صلى الله عليه وسلم يشير عليه بأبى الحسن المذكور فلما كان الصباح جاء إليه الناس الذين وعدهم ، فقال لهم الشيخ أبو محمد عليكم بابن الحاج فأمتنع ثم رغــب المــرة بعد المرة وأمتنع . وقال لا ينبغى أن يكون السكنى عوض الإمامة وتورع عن ذلك ، فقيل له إن لم تسكنها تعطل حبساً المجس لذلك فقال : أمهلونى

لأنظر لنفسي مخرجاً، ثم أجاب لسكناها على أن يكون يخيط حصر الجامع ورأى أن ذلــك عوضــاً عن السكنى والله ينفعه بذلك، توفى سنة ثلاث وخمسين وستمائة .
فخطب بعده الشيخ الفقيه المشاور الورع أبو عبد الله محمد بن يوسف المزدغى ثم قــام ولــده عوضاً عنه ، وكان لما دعى الإمامة استرجع ثلاث مرات ، فقيل له لما ذلــك ؟ فقال : أنه أخبرنى الشيخ الحافظ المحدث أبو درى الحسنى وأنا أروى عليه كــتاب الأحكام فى الحديث النبوى يوم توفى الفقيه أبي محمد بن موسى المعلم وولى القضاعى عوضه ونظر إلى ملياً ثم قال لى : يا محمد إنك تلى الإمامة للصلاة بالناس فى جــامع القــرويين وذلــك فى أخر عمرك ، فلما دعيت للإمامة تذكرت مقالة الشــيخ وعلمت أن أجلى قد قرب، فاسترجعت واقام أبو عبد الله محمد المذدغى إمامــاً وولده أبو القاسم خطيباً إلى أن توفى أبو عبد الله محمد فى تاسع ربيع الأخر ســنة خمس وخمسين وستمائة وولى الإمامة بعده الشيخ الفقيه الصالح الزاهد الورع أبــو الحسن على بن حميد ثم توفى الخطيب أبو القاسم المزدغى المذكور فولى الخطابة الفقيه أبو عبد الله محمد بن زيادة الله المدنى إلى أن توفى وبأثره توفى أيضاً أبو الحسن بن حميد رحمها الله تعالى، فخطب بعدهما بتقديم فقهاء المدينة وأشياخها الشيخ الفقيه أبو القاسم عبد الرحمن بن مشونة وقدم للإمامة الشيخ الفقيه القارئ أبو العباس بن أبي زرع وأقامــا فى ذلــك مدة من سبعين يوماً فخطب بعد ذلك الشيخ الفقيه أبو عــبد الله محمــد بــن الإمامة كل ذلك بأمر أمير المؤمنين أبي يعقوب فى سنة تسعة وثمــانين وستمائة إلى أن توفى فى تاسع ذى القعدة من سنة ثلاث وتسعين وستمائة فخطــب بعده الفقيه أبو الحسن يحيى بن أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد بن يوسف ابــن عمــران بن الفتوح المزذغى فى يوم الجمعة التاسع عشر لجمادى الأخير سنة أربــع وتسعين وستمائة وتقدم للإمامة الفقيه المحدث الأصولى أبو العباس أحمد بن راشد العمرانى عن أمر أمير المؤمنين أبي يعقوب رحمه الله فى موفى عشرين من شوال

ســنة ست وعشرين وسبعمائة ، فخطب بعده ولده الفقيه المحدث أبو الفضل محمد وكـان حسن السمت قليل الضحك مولعاً بقضاء حوائج الناس ممن عرف ومن لا يعـرف تارة بنفسه وتارة بماله وتارة برسالته مؤثراً جواداً حتى أنه لايرد سائلاً ولا شـاعراً فصـده بـل يباذر لقضاء حاجته وربما عدله بعض الناس فى ذلك فكان ينشدهم متمثلاً :

لا تقبلـن الشعر ثم تُضيعُه	فتنام والشعراء غير نيَّـام
وأعَلمْ بأنهم إذا لم ينصفـوا	حكموا لأنفسهم على الحكّـام
وجناية الجانى عليهم تنفضـى	وعفا بهم يبقى على الآيـام

وكان الناس يتوسلون به عند الخلفاء والأمراء وغيرهم فى حوائجهم لمترلته عـندهم وكـان كثير تسبباته فى الحراثة والزراعة والغراسة وكسب أموالاً كثيرة وكـان كـثير الأنباق لنفسه وحاشيته لا سيما فى المواسم والولائم إلى أن ارتكبته ديـون كـثيرة وغفل عن ضبط ماله والتفقد لا حواله واسترسل بالمسامحة للوكلاء فـتعين عليه مال جسيم مبلغه أحد والثلاثون ألف دينار وثلاثمائة دينار كلاهما من الذهـب العـين من جملتهات ودائع كانت بيده ولم يبلغ ما ألفى بيده وقدره من الأمـلاك والرباع وغير ذلك عند طلب الناس أموالهم وقيامهم عليه حاشى عشرة ألـف دينار وخمسمائة دينار من الفضة أقتسمها الغرماء حسب ديونهم . ولما سمع أمير المسلمين أبو الحسن رحمه الله عند تحققه بذلك صرفه عن الخطبة والإمامة ورأى أن ذلك مما يقدح فيه وأنفذ أمره بصرفه فرفع له هذه الأبيات :

أمولاى يا فخر الملوك ومن لـه	مزايا على كل الملوك الأكابـر

أما إن تحنَّ أو ترحَّم شـــأفتى [1]	وحبك ثاو فى الحشا والضمائر
وحَبك [2] فى قلبى إليك مجـــدَّد	لذا كل باد فى الأنام وحاضـــر
فكيف يضيع الحب يانور ناظرى	وأنت إمام ذو[3] العلا والمآثـــر
فكيف يكون المرء أعنى جيبكم [4]	مضاهاً مهاناً فى القرى والحواضر
وقد قال أهل العلمُ طَرابفاســـنـــا	بأن الذى قد كان ليس بضائـــر
وغاية ما قد عددوه [5] صغائـــر	ولا[6]فرح فيمن قدأتى بالصغائر
أأبعَدُ عنكم دون فعـــــل كبيرة	وأمنع قهراً من سعود المنابــــر
ولو كنت يا مولاى أعلم أن مـــن	رقى منبراً مثلى يكون مناظرى
لما طمحت نفسى لشىء من العلا	والزمتها هون [7] الصفوف الأواخر

ولمـــا وقف عليها السلطان قدم على صرفه وكتب الأمر بذلك لمدينة فاس مـــن منصورة تلمسان فى الثالث عشر شعبان سنة ست وأربعين وسبعمائة ووقف الأمير أبو الحسن رحمه الله على قصيدة من نظمه كان اراد رفعها المقامة العلى حين غلـــبه الدين يستنجده ويعينه فى دينه فخجل من ذلك وأجرى له جراية مبلغها مائة

(1) وردت فى الأصـــــل شاختى .
(2) وردت فى الأصـــــل حـــب .
(3) وردت فى الأصـــــل ذى .
(4) وردت فى الأصـــــل عبيدك .
(5) وردت فى الأصـــــل عددوها .
(6) وردت فى الأصـــــل فـــدح .
(7) وردت فى الأصـــــل بين الصواب فى المتن .

دينار وخمسون ديناراً فضه كل شهر على أن توفى فى عقب شوال سنة ثمان واربعين وسبعمائة ومن القصيدة :

مالى سوى المقتدى بالكتب والرسل ... بعد الالاه أمير المسـلمين على
مالى سواه لما أرجوه من مقـر ... مالى سواه لنيل السؤل والأمل
نجل الخليفة عثمان الذى وضحت ... منه المعالى وضوحاً غير محتمل
أعنى أبا حسن قطب الملوك ومن ... أحيى الخلافة فى علم وفى عمل
عز الملوك إذا خطب ألَّم بعهـم ... غيث العفاة أمان الخائف الوجل
بحرا السماحة فياض للـوارده ... عذب زيرويك فى نبل وفى نهل
ينسيك يوم هياج الحرب عمرهم ... عند الطعان وما عمرو بمحتمل
ماضى العزائم فرد فى شجاعتـه ... يوفر على كل ذى وصف وذى مثل

ونقـل مثل هذا أنما هو ليكثر الشاعر على القناعة وليذكر المغرور ويعتبر الغـافل فخطب بعده الفقيه التالى لكتاب الله تعالى أبو محمد عبد الله الجنيارى كان رحمـه الله كثير الصوم وقدمه لذلك أبو الحسن أمير المسلمين رحمه الله إلى أن توفى يوم الخميس السادس لشهر جمادى الأولى من أبو الحجاج يوسف بن عمر الأنفاسى بـتقديم مولانا أبى عنان رحمه الله بعد الاستخارة والنظر والإصلاح للمسلمين وقبل الـتقديم بعـد أن أبدأ لنفسه أعذاراً لم يسمح له فيها للمصالحة التى غلبت على أعـذاره وفرح الناس بتقديمه له وشكروه على اعتنائه بالأمور الدينية وبعث له فى أول خطـبة خطـبها كسـوة سنية على برنوص وبدن كلاهما أبيضان من صوف وأحـزام للـتردية وجـندان للتعميم ودراعتين من ثوب الرصان وقبطية شراشية العمـل ، قال الرسول الذى حملها له أن قيمتها أزيد من مائة دينار من الذهب ولما وصلته خجل من ذلك وقال أن هذه الكسوة لا تصلح لمثلى وفيما على من اللباس

كفايـــة وفهـــم منه طلب المعافاة فى قبولها . فقال له الرسول : أنت من أهل العلم وعندك وجوه لأخذها وأنما قصد مرسلها ومهديها التنوية بأهل العلم مثلك ليمتاز أهـــل الخطـــط من غيرهم وليعلم الناس بتقديمه لك وبما فى الهدية من التودد فقبلها وشكر عليها ودعا له بصلاح الأحوال ثم لبسها فى حال خطبته الأولى ثم وهبها بعد ذلـــك لمـــن يستحقها من كرماء البلد، وأقتصر على عادته فى لباسه ولم يزل عنده محمولاً على المبرة والاكرام مقضى الحوائج على الدوام وخطب نائباً لاعذار أبداها الشيخ القاضى الراوية المحدث أبو عبد الله محمد بن الحاج ابنى الحسن على بن عبد الـــرزاق الجزولى وما زال أبو الحجاج يوسف يعتذر على القيام بها إلى أن أستبدلها لـــلقيام بذلك الفقيه أبو عبد الله بن على المذكور واقام خطيباً إلى أن أختل حفظه وظهـــر عجزه من الخطبة، فخطب بعده الفقيه الأعدل الصـــالح أبو محمد عبد الله ابـــن الخطيـــب أبي محمد عبد الواحد ابن الخطيب أبي عبد الله محمد بن ابى الصبر بـــتعيين أبي عـــنان رحمه الله تعالى لذلك فى يوم عجز من ذكرو ذلك يوم الجمعة الرابع عشر لجمادى الأولى سنة ثمان وخمسين وسبعمائة. وتوفى الفقيه أبو عبد الله ابـــن على عبد الرزاق المذكور فى يوم الأحد الرابع لذى القعدة سنة ثمان وخمسين وســـبعمائة وبقى الصالح أبو الحجاج إماماً إلى أن مرض وعجز عن القيام بالإمامة فقـــدم ولـــده الشاب الصالح الولى الوريع أبا الربيع سليمان نائباً عنه فى ذلك بعد أبائـــه مـــنه ثم أجـــاب فى يوم الأربعاء الثامن عشر لرمضان سنة ستين وسبعمائة وأستمر الاستنابة إلى أن توفى والده المذكور فى يوم الأحد الثالث عشر لشعبان سنة إحدى وستين وسبعمائة واستقل ولده أبو الربيع بالإمامة وظهر عنه خبر واستقامة ثم تأخـــــــر من تلقاء نفسه نفع الله به لأمر ظهر له فى ذلك، وأجتمع لأبى محمد عبد الله الصبر المذكور والخطبة والإمامة فى أواخر عام ستة وستين وسبعمائة .

ما زيد من البنـــاء
فى الجامع

ومــن الــزيادات فى الجامع المذكور الباب الأكبر الغربى الذى بسماط الموثقــين بــنى من مال الأحباس فى أيام الفقيه القاضى أبى عبد الله محمد بن عيسى الســبتى سنة خمس وخمسمائة كذا قاله صاحب المقياس ثم صنع بخارجة قبة الجص المقربسة التى عليها الآن الغربية الصناعة سة سبع عشرة وستمائة على الخطيب أبى عبد الله بن موسى المعلم قاله صاحب الأنيس . والباب الأكبر المعروف الآن بباب الشماعين بنى من مال الأحباس فى أيام القاضى أبى عبد الله محمد بن داود سنة ثمان عشــرة وخمســمائة كذا كتب فى قبة الجص التى بداخله وصنع مرتفعاً واسعاً على صــفة الباب القريب منه المذكور أيضاً وركب عليه مصراعان عظيمان قد حسنت فأعدتــاه عــلى مــا هو الآن عليه وحين حفر أساس هذا اللباب وجد على يسار الداخل منه حيث هى الدكانة الآن بناء مغبى قدر أنه كنز فهدم بعض الأقباء فوجد تحــته صهريج طوله ثمانية أشبار وعرضه كذلك وقية ماء معين وبالصهريج سلحفاة قــد ملاتــه وأختلفوا فى إخراجها ثم رأوا أن يشاوروا فى ذلك فقهاء فاس فأشاروا بتركها فى موضعها وأن يعاد الأقباء عليها كما كان ، وهذه الفتوى لا تصلح والله أعــلم لأن السلحفاة إن كانت فيها الحياة ولا يجوز أن يبنى عليها وإن كانت ميتة فــلا يجــوز أيضاً بناء المسجد على الميتة اللهم إلا أن يكون ذلك الماء وغذاء لهما وليــس فى البناء عليها تعريب لها فلا يمنع البناء عليها وأيضاً فقد كان من تقدم ربما جــرب غــير مامرة وقوع الضرر لمن يريد إخراجها من موضعها . أما لكونه جناً عامراً أو غير ذلك والله أعلم .

ولما تم بناء هذا الباب عمل بأعلاه قبتان ، أحداهما من الجص بداخله، وعملت القبة الثانية من خشب الأرز بخارجه، ثم اضطرمت نار من جهة باب السلسلة وأحرقت ما مرت عليه من الأسواق إلى أن وصلت قبة الخشب المذكورة فأحرقتها. وذلك فى شهر جمادى الأخيرة سنة إحدى وسبعين خمسمائة ثم حدد خارج الباب والقبة التى أحترقت وصنعت القبة من الجص على نحو ما فى الآن على يد أحد عمال الموحدين فى سنة ستمائة كذا كتب فيها وكان الأتفاق فى ذلك من بيت المال . وفى أيام القاضى أبى عبد الله محمد بن داود زيد فى الصحن بلاطان من الجهة الشرقية ومن الجهة الغربية كذلك وفرش الصحن فى أيامه حسبما ذكره صاحب المقياس ومن الأنيس : أن الصحن كانت فيه قعرات يحتبس فيها الماء فتطوع العريف المشعر أبو عبد الله محمد بن أحمد صخر بفرشه من ماله . وكان له أربع من الدور موروثة عن أبيه فباعها وأنفقها فيما يحتاج إليه من أجور وجير وغيره وتولى فرشه بيده ولم يأخذ فى ذلك كله من أحد شيئاً وقال : أنما ابتغيت بذلك وجه الله تعالى وهو الفرش الذى به الآن . وفى طوله من شرق إلى غرب مائتا صف وثلاثة وأربعون صفاً، فى كل صف مائتا أرجورة وثمان عشرة أجورة فيصبح فى تكسيره ثلاث وخمسون ألف أجورة وثمان عشرة أجورة غير ست وعشرين أجورة. وفى طوله أيضاً من الأشباره مائة واثنين وثمانون شبراً . وفى عرضه خمسة وعشرون شبراً ومما زاده القاضى محمد بن داود بصحن الجامع المذكور فعل له مظلاً من سقف كتان تنتشر عليه كل يوم جمعة فى زمن الصيف يحجب بها الشمس عن المصلين المتآخرين عن الرواح لبعد المنازل الذين لايجدون محيصاً عنه لتضايق الجامع وجعل فى اطنابه سلسلتان تجريان فى بكر موثقة بالرفود الدائرة على جوانب الصحن ترتفع بها المظل مدة الحاجة إليه ثم أنه يحط ويزول ويحذف إلى وقت الحاجة إليه . أيضاً وجعل فى مواضعه فرجا يتنفس منه الهواء وبقى كذلك أعواماً إلى أن

تمزقت وأهمل النظر فيه وبكره ظاهرة إلى الآن كذا نقله صاحب الأنيس وقد أنشد فى معنى ذلك :

تفسحت الدنيا بعد لك فى الورى وفسحت لما ضاق للخلق جامعاً
شكى صحنه شمس الظهيرة ضاحيا فاظللته ظلا على الوهج دافعـــاً

ولمـــا كـــثرت العمارة بالمدينة فى أيام أمير المسلمين على بن يوسف بـــن تاشـــفين [1] وضـــاق الجـــامع بكثرة المصلين إلى أن كانـــــوا يصلون بالشوارع والأســـواق. أجتمع فقهاء المدينة وأشياخها ورفع ذلك للقاضى أبى محمد عبد الحق ابـــن عـــبد الله بن معيشة الغرناطى سنة تسع وعشرين وخمسمائة ودالوا له كيف

---

(1) هـــو على بن يوسف بن تاشفين اللمتونى أبو الحسن أمير المسلمين بمراكش وثانى ملوك دولـــة الملثمين المرابطين ولد بسبتة سنة ٤٧٧هـــ/ ١٠٨٤ م وبويع بعد وفاة أبيـــــه سنة ٥٠٠ هـــ بعهد منه ، بمراكش . قال السلاوى: ملك من البلاد ما لم يملكه أبوه ، لأن البلاد كانت ساكنة والأموال وافرة والرعايا آمنة بانقطاع ''وار واجتماع الكلمة، وسلك طريقة أبيه فى جميع أموره . وقال ابن خلكان : كان حليماً وقوراً صالحاً عادلاً ، ومن أعماله أنه جاز إلى الأندلس سنة ٥٠٣ هـــ ، مجاهداً فعبر البحر من سبتة فى جيوش تـــزيد على مائة ألف فارس. فأنتهى إلى قرطبة ثم فتح مدينة طلاموت ومجريط ووادى الحجارة و٢٧ حصناً من أعمال طليطلة . وعاد وكانت له بعد ذلك معارك مع الفرنج حالفه فيها الظفر. وفى أيامه ظهر محمد بن عبد الله الملقب بالمهدى (ابن تومرت) فعجز على عن دفع فتنته وأضطربت أموره فمات غماً فى مراكش سنة ٥٣٧ هـــ / ١١٤٣ م ولم يشـــهر خـــبر موته إلا بعد ثلاثة أشهر منه . ومدة خلافته ٣٦ سنة و٧ أشهر .

انظـــر المزيـــــد فى : الاستقصا ١/ ١٢٣ — ١٢٦ ، الحلل الموشية ٦١ — ٩٠ ، الحلل ٥٣ ، جذوة الاقتباس ٢٩١ .

تصح الزيادة فيه وبينوا له وجوها فى الإعانة على بنائه وعلموه أن كثيراً من أوقاف المساجد عند كثير من أهل فاس قد أدخلوها فى منافعهم وحسبوها من أموالهم وأنها تقوم بالنفقة بالزيادة المذكورة فشاورا فى ذلك الخليفة على بن يوسف وأعلموا أن ذلك من عمل رفع الدين والتوسعة للمصلين لا سيما فى يوم الجمعة الذى فى أعياد المسلمين فأذن للقاضى وتوجه الطلب على النظراء والوكلاء فى ذلك ومحاسبتهم فذكر أن الذى أبرزته المحاسبة ثمانون ألف دينار فضة ثم أمرنى شراء الأملاك التى كانت بقبلة الجامع فأشتراها بأحسن شراء قيل إن أكثرها كانت لليهود لعنهم الله وكان أعلمهم أن من الفقه إذا ذاق الجامع فأن جيرانه يجبرون على بيع ما يحتاج إليه منها فأجابوا لذلك وحين كمل الشراء أراد أن يهدمه ويبيع ما لا يحتاج إليه من نفضه فأجتمع ذلك أزيد المشارات به ثم أخذ فى البناء فتمادى البناء فى هذه الزيادة فكملت عشر بلاطات من صحنة إلى قبلته وأخذ فى عمل القبة التى بأعلى المحراب وما يحاديها من وسط البلاطين المتصل بهما فعل ذلك بالجص المفريس الفاخر الصنعة والنقش فيه على المحراب ودائر القبلة التى عليه ورفش ذلك كله بورقة الذهب والأزورد وأصناق الأصبغة وركب فى الشماشات التى بجونب القبة أشكال متقنة من أنواع الزجاج وألوانه على أحسن ما أريد ثم أخذ فى تغشية بعض أبواب الجامع بصفائح النحاس الأصفر بالعمل المحكم والشكل المتقن وأمر بعمل المنبر الذى به الآن على نحو ما ذكر قبل من أجل أن الذى كان قبله قد درس وقد ذكرناه ثم بدأ العمل فى بناء مقدم القبة حيث يدخل على مصلى الجنائز فعزل القاضى ولم يتم ما أراده وذلك فى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وتقدم غيره ولم يشرع فى شيء من ذلك وبقى على حاله إلى أن ولى قضاء المدينة الشيخ الفقيه أبو مروان عبد الملك بن بيضاء القيسى سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ويذكر أن النفش والتذهيب الذى كان بأعلا المحراب ودائر القبة التى عليها غطى ذلك

كلـــه بالكاغيد وعمل عليه الجص حين عزم الخليفة عبد المؤمن بن على الدخول لفاس والصلاة فى الجامع المذكور لأن كان ذلك مشغلاً للمصلين . ويذكر أيضاً أن الـــتراب والكدان الذى بنى به هذه الزيادة كان يخرج ذلك من كهف عمق تحت هذه البلاطات الثلاث والكهف الآن فى باب مطيق بالقطعة التى بين المحراب والباب المـــدرج المحدث هناك . وأما الماء الذى صرف فى ذلك فكان يسقى من البئر الذى بصحنه كل ذلك تحرياً من الشبهات كذا نقل صاحب المقياس وصاحب الأنيس .

الثريـــا الكبرى

وأمـــا الثريا الكبرى فأنها كانت بموضعها قبل عملها به ثريا مثلها فى الحزم فدثـــرت وتكســـرت، وصـــنعت هذه فى أيام الفقيه الخطيب أبى محمد عبد الله بن موسى المعلم رحمه الله تعالى، وكان الإنفاق عليها سبعمائة دينار وسبعة عشر ديناراً وخمس دينار من الدنانير الفضة ، كل ذلك من أحباس الجامع . وفيها من الصنعة ما يعجز عنه الآن ، وفى زنة هذه الثريا سبعة عشر قنطاراً وربع قنطار وفى دورها أثنان وثلاثون شبرا وعدد مراكير قناديلها خمسمائة وعشرون والذى يملأ قوارير سرجها من الزيت خمس قلل وكانت تارة تسرج كلها فى ليالى رمضان وتارة لا تسرج إلى أن ولى الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبى الصبر قضاء المدينة فرأى أنه أسرجت كل ليـــلة من رمضان قد يكون ذلك سرفاً فى مال الجامع وإن لم تسرج قد يكون ذلك تضـــيعاً لمـــا أريد بها فأقتضى نظره بعد أن استشار أمير المسلمين مولانا أبا يعقوب وأنهـــى إليه أمرها فأمره أن يأخذ فى ذلك بالوسط من الأمور وأن تسرج كلها فى طـــول ليلة السابع والعشرين من رمضان ويسرج بعضها فى سائر ليالى العام فدام العمل على ذلك إلى الآن وأنشد فى ذلك :

تحكى الثريّا الثريّا فى تألقهـــــا وقد لواها تسين وهى تتّقـــــد
كأنها لذوى الإيمان أفئـــــدةَ من التخشع جوف الليل ترتعِد

وكـــان الأســـتاذ المزيانى رحمه الله جالساً تحت هذه الثريا فى ليلة السابع والعشـــرين ومعه الأستاذ ابن عبدون الأديب رحمه الله ومالك بن المرحل ومحمد بن خلف فأنشد الأستاذ ارتجالاً :

انظر إلى ثرية نورهـــا يصـــــدع با للألاء سجف الغســــــق

فقال ابن عبدون :

كأنها فى شكلها ربـــــــوة انتظم النور بها فاتســـــــق

وقال ابن المرحـــل .

أعيذها من شر ما يتقـــــــى وفجأة العين برب الفلــــق

وقال ابن خلـــف :

باهى بها الإسلام مـــا أشرقت كأسالها عند مغيب الشـــفق

ومما قيل فى السروج :

انظر إلى سروج فى الليل مشرقة من الزجاج حولها وهى تلتهب
كأنها ألسن الحيات بـــــارزة عند الهجير فما تنفك تضطرب

المســـــتودع

وأمـــا المســـتودع الذى به الآن فانه عمل فى أيام الفقيه الصالح ابى محمد يشكر ليوضع فيه مال الجامع وأوقافه . وكان الناظر فى أيام بنائه الفقيه أبو الفقيه أبو القاسم بن أحمد وبناه بعد أن حفره فاعدنه إلى أن وصل للأرض الصحيحة ثم بلط دلط بالرمل والجير والجص وحصن داخله وسقفه بخشب الأرز عمل له خمس مسافيس بصفائح من حديد مقلوبة وبابان أحدهما محدد كل ذلك على الوجه المحكم والعمل الوثيق وجعل لكل باب منها ثلاثة مفاتيح وجعل داخله صناديق كبار عليها أقفـــال وثيقة ثم وضع فيه أوقاف الجامع وأمانات الناس . وكان الأنفاق عليها من مـــال الأجاس فأحتيل عليه فى أيام الفقيه أبى عبد الله محمد بن عمران وسرق منه مال ، وأجتهد فى البحث عن ذلك فلم يجد خبزاً .

البيلة والخصة ودار الوضوء

وأمـــا البيـــلة والخصة ودار الوضوء وآحداث البناء الذى فى توسيع باب الحفاة وتجديدها وفتح الباب المقابل لفندق ابن حيون من الجهة الشرقية فإن ذلك كله فى أيام الفقيه الصالح أبى يشكر.

يحكـــى أنـــه قدم إليه رجل من باى يازغة يعرف بموسى بن عبد الله بن ســـدات كان له مال كثير واستوطن مدينة فاس ولزم محبة الشيخ أبى محمد يشكر وذكـــر له أن بيده مالاً طيباً ورثه عن ابيه وأن أباه اكتسبه من حراثه بيده فى أرضه ومـــن ماســـية تولـــدت عنده ويريد أن يصرفه فيما يحتاج إليه فى جامع القرويين فـــتوقف الشيخ أبو محمد يشكر إلى أن ينظر فى ذلك وصار يلح عليه فى أن يعمل

دار وضوء بقرب الجامع المذكور لتكون عوناً للمصلين فلما رأى غرمه وتوسم فيه الخير حملة على الجامع وأوقفه بين المنبر والمحراب واستحلفه أن ذلك المال طيب فحلف له ثم قال له : اشرع الآن فيما اردت والله ينفعك بمقصودك فعمد إلى فندق كان فى موضع دار الوضوء فأشتراه وشرع فى نقضه ثم بحث عن موضع يجلب له الماء لذلك فأعلم بمواضع شتى استشار فيها أهل المعرفة والنظر فلم يروا له اصلح من عين بدويرة بحرنيز وتعرف العين بعين فرمال .

ومنها إلى الجامع خمسمائة ذراع فأشترى ذلك بأضعاف القيمة حرصاً على مراده ثم رغب من الشيخ أبى محمد أن يعلم بذلك الأمير الناصر الموحدى ويستأذنه فى أن يجلب هذا الماء حيث يباح له من الشوارع فأجابه إلى ذلك وأعلم به الناصر فأسعفه فى مطلبه وشرع فى بناء دار الوضوء وجعل له خمسة أعشر بيتاً ولكل بيت مصراعان وفوق سقف كل بيت طاق لدخول الوضوء وأخرى فوق بابه وعلق فى كل طاقة من طيقان أبوابها صبحية من الزجاج تسرج فى أول الليل وأخره وفى كل بيت أنبوبه من نحاس يصب منه الماء فى نقير محفور من حجر طوله شبران وعرضه شبر وفى سمكها قبة من جص مقربشة العمل مرقشة بأنواع الأصبغة وعلق فى وسطها ثرياوها قوارير زجاج تسرج فى أول الليل وأخره أيضاً وأدار من الجهة القبلية والشرقية والجوفية أحد عشر طاقاً لدخول الضوء بجميعها وجعل بوسطها بيلة من الحجر الأحمر طولها عشرون ....[1] وبجوانبها ثقباً من نحاس مموهة بالذهب ينصب منها الماء للبيلة ملعباً وينحدر منها الماء المستعمل فى الوضوء ....[2] دائر كل ذلك من الرخام الأبيض وحمل على بعضها للقيام بها

---

(١) بياض فى الأصل .

(٢) بياض فى الأصل .

وقصد إلى العين المذكورة فوجدها تنفجر من قوارتين فى حجر صلد يجتمع الماء منها فى بيت مقبو كبيت الحمام وجعل بازائه صهريجاً مربعاً طول كل جهة منه عشرة أشبار مملساً بالرصاص يطر فيه الماء الخارج من البيت ثم أخرجه منه على شباك من رصاص شبه الشهدة إلى قواديس من رصاص سعتها أكثر من شبر ثم مر بالقواديس منها إلى عقبة الملاحين إلى مسجد الشرفاء إلى سماط القيسارية إلى سوق الخرازين على سوق الفرافين إلى المعدة التى بالحانوت المتصلة بالبيلة المذكورة والسقاية المتصلة بها وللبيلة التى بباب الحفاة المغشية بالرصاص، وطول هذه البيلة سبعة وعشرون شبرا وهى متصلة بخارج الباب وقد عمل عليها اشباك من خشب وفتح فيه اربع خوخات وارتفاع هذا الباب ستة عشر شبرا وقد فرش فى أيام الفقيه القاضى أبى عبد الله محمد بن أبى الصبر بالرخام الأبيض والأكحل ويتدفق الماء من جهة المعدة المذكور إلى هذه البيلة المغشية بالرصاص ثم ينصب منها الماء على رخام أبيض وأزرق وأحمر يغسل فيه الحفاة أرجلهم ثم يغور الماء فى قناة معدة لذلك ثم قدم لعمل البيلة والخصة التى بالصحن رجل من سجلماسة يعرف بالفقيه أبى الحسن ابن عبد الله السلجماسى وكان من أهل الإيثار والدين صنعهما له أبو عمران موسى بن حسن بن أبى شامة وكان من أهل المعرفة بالبناء والهندسة بعد أن استشار فى ذلك الفقيه الصالح أبى محمد يشكر فأسعف فى ذلك وعمل البيلة وما حولها من الرخام الأبيض وجعل طولها أثنى عشر شبرا وأرتفاعها ستة أشبار وسعتها نحو ثلاثة أشبار وعمقها كذلك وجعل مما يقابل الواقف إليها وعن يمينه وشماله ألواحاً من الرصاص وادار بذلك تكفيف الرخام وجعل على ذلك مما يقابل الواقف شباكاً من الرخام الأبيض من مائة وأربعة وعشرين خاتماً وكتب تحته فى حجر منقوش بخط بارع :

بسم الله الرحمن الرحيم * وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما * ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [1] كمل فى شهر جمادى الأخيرة سنة تسع وتسعين وخمسانة وجعل تحت ذلك فى ألواح الرخام خمسة أنابيب يصب منها الماء فى البيلة المذكورة أى الشرقية وينصرف للخصة القريبة منها من جهة غربيها قد عملت من طاقتين فى دور كل واحدة منهما ثلاثة عشر شبراً قامت على ساق مقسوم على نصفين كل ذلك من النحاس الأصفر ثم يصعد الماء المنحدر من البيلة فى النصف من الساق يغور فى وسطها من ثمانية أثقاب بجوانب خرشقة من نحاس مموهة بالذهب ثم يغور منها الماء بعد أمتلائها فى أثقاب معدة لذلك بجوانبها ويجتمع فى النصف الثانى من الساق فلا تزال البيلة والخصة مملؤتين يفضى منهما المارب للمصلين والعاكفين والواردين وشربهم متى احتاجوا فى ليلهم ونهارهم وهذه فضيلة تكرر على الدوام لهذا الجامع ولمن سعى فى ذلك وأعان عليه من خلفاء الإسلام ثم ينحدر ماء الخصة فى قادوس إلى الميضات التى بعين فرفق بالجهة القبلية من الجامع المذكور.

وأما العيزة التى به الآن فأنها صنعت حين كان الفقيه أبو عبد الله بن ابى الصبر ناظراً فى أحباس المسلمين وعلى جامع القرويين .

ومن فوائدها انفق فيها ذلك سنة ثمان وثمانين وستمائة وفيها غرابة الصنعة ونفاسة الخشب وإتقان الإلصاق ودقة الخرط والنقش ما يقضى بالعجب ويصح بالمجاز ومما أصلح فيه الحائط الشرقى مع سقف البلاطين المتصلتين به وذلك فى أيام مولانا أمير المسلمين المتوكل على رب العالمين أبى يوسف رحمه الله تعالى سنة أثنتين

---

[1] سورة البقرة الآية ٧٤ .

وثمانين وستمائة ونفق فيه من مال الجزية والأعشار وأصلح فيه ايضاً الحائط الجوفى من حد الساباط الفاصل بينه وبين الدار الموقوفة لسكنى أئمة المسجد إلى حد باب السفر الذى هناك وذلك فى أيام أمير المسلمين مولانا أبى يعقوب رحمه الله وانفق عليه خلخال ذهب صار له من مال دخائر الروم وكان إصلاحه على يد قاضيه بالمدينة الفقيه ابى غالب ابن القاضى أبى عبد الرحمن المغيلى وذلك فى سنة ست وتسعين وستمائة ، ومما أحدث فيه الباب المدرج الذى بقبلته وذلك أن الوالى بالمدينة ابا الحسن على بن محمد بن عبد الكريم الحدودى تأمل الباب المدرج الذى بنى فى أيام الناصر الموحدى بجوفى جامع الأندلس وأراد أن يفخم أمر جامع القرويين ويصنع له هذا الباب ليكون مماثلاً للباب المذكور فبناه على هيئته الآن ، وصنع أسفله نفيراً من الخشب مملس بالرصاص وجلب له الماء من عيون ابن الصاوى المعروفة الآن بعيون الكرازين ليدخل عليه الحفاة وغيرهم وعمل عليه شباكاً من خشب الارز بباب يدخل إليه من اراد الصعود إلى أدراجه وصنع بأعلاه الأدراج باباً عظيماً وصنع عن يمين الخارج من أسفل الأدراج سقاية ونمقها بالجص والزلات والحجر المنحور وأنواع الصبغة كل ذلك بصناعة محكمة ظريفة العمل وجلب إليها الماء من الموضع المذكور ويذكر أنه انفق فى ذلك من مستغلاته سنة أثنتين وتسعين وستمائة وأراد أن يعلم بذلك أمير المسلمين أنه أحدث فى الجامع مالا يحتاج إليه بغير إذن فأمر أمير المسلمين بغلفة على أن ينظر فى أمره فغفل عن ذلك. فلم يزل البا مغلقاً إلى الآن . ومما أحدث فيه الأمير ابو حفص رحمه الله ابن مولانا أمير المؤمنين أبى سعيد أن يجعل فى الجهة الغربية من الجامع تسع من الطبقات لزيادة الضوء فى تلك الجهة وأمر أن تجعل على المحراب مقصورة وشرع الصناع فى عملها وأنشئت من ثلاثة أجناب من خشب الأرز بصناعة النقاشين ارتفاع كل جانب منها تسعة أشبار وطول الأوسط منها ثلاثون شبرا وهو الذى صنع فيه الباب

وطـول كـل واحد من الأخرين خمسة وعشرون شبراً ثم أن الناس ظهر لهم أن فى ذلـك مضـرة بإنقطاع الصفوف وميلولتهم عن الإمام وغير ذلك فرفعوا الأمر فى ذلك لفقائهم فلقوا الأمير المذكور وبينوا له ما ظهر للناس من الضرر وقالوا له مع ذلـك أمـوراً مصلحية فرجع عن عمله ثم وضعت فى جهة من جهات الجامع وهو الآن يـلفق الـباب المدرج المغلق وكان عمله فى سنة أثنتى عشرة وسبعمائة وكان الانفـاق فيـه من مال الأحباس على يد الناظر فيها أبى عبد الله محمد بن ميمون وكـان الأمـير أبـو الحسن رحمه الله اراد أن يجعل بهذه الأضباب مقصورة بجامع القصبة من فاس لصغر التى به وخدمها ولعله أنسى ذلك والله أعلم .

النـاقـوس الكبير

وأمـا الـناقوس الكبير المعلق بالبلاط الأوسط المقابل لباب الكتبيين فهو الـذى ألقى بجبل الفتح من بر الأندلس لما إفتتحه المسلمون على يد الأمير الأسعاد الشهير بأبى مالك عبد الواحد بن امير المسلمين أبى الحسن رحمه الله تعالى وزنة هذا الـناقوس فـيما قاله عز الدين بن جلبون عشرة قناطير . ولما وصل لفاس أمر أمير المؤمـنين أبـو الحسن أن يعلق هناك بعد أن يعمل فى جوانبه أجناح قائمة متفرقة ليـبقى ظاهراً ويعمل عليها مراكز لقوارير الزجاج التى تسرج فيه وبأسفله أوصال مبـلغها أثـنى عشر تحت كل وصل منها بلور مكفف . وفى وسط ذلك طبق شبة الخاتم .... (١) عن الأوصال .

(١) بيـاض فى الأصـل .

وفى أسفل حروف الطبق بناديق مخروطة ونطاق ممدود فى جوفه كل ذلك من النحاس الأصفر المنقوش المخدوم بصناعة محكمة وكتب على النطاق ما نصه :

{ الحمد لله وحده ، أمر بتعليق هذا الناقوس المبارك أمير المسلمين وناصر الدين أبو الحسن ابن أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين " أبى سعيد أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين " أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق " } أيد الله سلطانهم وأسعد عصرهم وزمانهم وهو الناقوس الملقى بجبل الفتح حرسه الله أفتتحه بعون الله وتأييده أمير المسلمين أبو الحسن أيده الله ونصره على يد ولده الأمير الأسعد أبى مالك ومولانا أيده الله ونصره محاصراً مدينة سجلماسة ، وكان أفتتاح الجبل المذكور فى يوم الأحد الخامس لشهر شوال المبارك من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة وفى أثناء عمل الناقوس عمل له قبة من الجص متقنة العمل وعلق بها فى منتصف شوال سنة سبع وثلاثين وكان الإنفاق فيه من مال الأحباس على يد الناظر فيها أحمد بن الأشقر الصنهاجى :

الخزانـــــــة

وأمـــا خزانة الكتب التى يدخل إليها من أعلى المستودع الذى بها فأنه لما كـــان من رأى أبى عنان رحمه الله تعالى حب العلم وإيثاره والاهتمام به والرغبة فى انتشـــاره والاعتـــناء بأهله ومتحمليه والتودد لقرائه ومتحليه انتدب لصنع هذه الخـــزانة وأوسع على طلبه العلم بأن أخرج لها من الكتب المحتوية على أنواع من عـــلوم الأبـــدان والأديان والسان والأذهان وغير ذلك من العلوم على اختلافها وتـــنوع ضروبها وأجناسها ووقفها ابتغاء الزلفى ورجاء ثواب الله الأوفى وعين لها فـــيما لضبطها ومناولة ما فيها وتوصيلها لمن لبـــه رغبة أخرى له على ذلك جراية مابدة تكرمه وعناية وذلك فى جمادى الأولى سنة خمس وسبعمائة.

وأمـــا خزانة المصاحف التى أمر بها مولانا أمير المؤمنين أبى عنان رحمه الله تعـــالى فى قبلة هذا الجامع الناطقة بالخير الجامع أنشىء على حسنها مالم يسبقه إليها أحـــد مـــن أئمة هذه الاصقاع فأنه رحمه الله تعالى صورها فى ذهنه الثاقب المبير ثم أبـــرزها لمن صنع شخصها الجليل الحصين فأبدأ من ذلك ما هو المعهود من حسناته المأثورة وسهل بها على الناس تلاوة القرآن فى كل وقت من الأزمان وأعد فيها جملة كـــثيرة من المصاحف الحسنة الخطوط البهية الجليلة السنية وأباحها لمن اراد التلاوة فيهـــا بعـــد أن كتب على كل شخص منها بخط يده لتوقيعها مر الأعوام والليالى والأيـــام ونجـــز لها من قيد لاخراجها من هذه الخزانة وإبرازها وردها لصيانها فى موضعها وإحرازها وذلك عند الفراغ من حاجة الناس إليها فلا يبدل ذلك ولا يغير إلى أن يـــرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وأجرى لذلك جراية واسعة وكرامة ورعاية وكتب فوق هذه الخزانة ما نصه:

{ الحمد لله أمر بإنشاء هذه الخزانة السعيدة مولانا أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين عبد الله فارس أيد الله أمره وأعز نصره} بتاريخ شهر شوال سنة خمسين وسبعمائة رزقنا الله خيرها .

زاوية القــراء

وأمـــا زاويـــة القراء البهية التى أمر بها مولانا المستعين رحمه الله فى شرقى هــذا الجامع مسافتها على ساباط هنالك وجعل لقبليها وجوفها من صناعة الخرط والــتزيين بالأصــبغة مـــا يهيم به المار والسالك ورتب فيها قراءين يتلون القرآن ويجــتهدون بطــول الســبعة أيام ، وعلى مر الأزمان وأجرى جراية فى كل شهر يشــفعون فيها ومرتبون لذلك بسببها وثم عملها فى أواخر شهر رمضان سنة اثنتين وستين وسبعمائة .

أبواب الجــامع

ولهذا الجامع من الأبواب بين صغار وكبار ثمانية عشر بابا منها فى الجانب الغــربى بـــاب مجلس القضاة ومصلى الجنائز وباب الصفر المعروف بباب القطاعين وبـــاب الأوليـــاء سمـــى بذلـــك لكثرة من يدخله من العباد وباب الكتبيين وباب الشماعين الذى سعته سنة عشر شبرا وارتفاعه أربع وعشرون شبراً وباب المؤثقين المقـــابل لـــتربيعة الزافين وسعته وأرتفاعه مثل الذى قبله . وفى الجانب الجوفى باب الحفاة المقابل لدار الوضوء القديمة وباب الصفر المعروف بباب العميان سمى بذلك لكثرة ملازمتهم للقعود فيه يمثلون للناس وباب بيت النساء الأصفر بمؤخر الصحن

وباب خصة المقابل لمدرسة الرخام وباب بيت النساء أيضاً الذى بأسفل الساباط الفاصل بين الجامع ودار الخلافة .

فى الجانب الشرقى الباب المقابل لطائفة من فندق ابن ميمون ويعرف بباب ابن عمر سمى باسم النجار الذى صنعه وهو المحدث فى أيام أبى محمد يشكر والباب المقابل لدرب ابن حيون والباب المقابل لدار الخصة التى من أحباس الجامع وباب المدرج الغريب المقابل لدرب السبع لويات ويتصل بزاوية القراء .

وفى الجانب القبلى الباب المدرج المحدث على يد الحدودى المغلق الآن والباب الأصغر الذى يدخل إليه رائقة ابن الفرديس .... [1] هناك لمن يدخل مستتراً عن أعين الناس للخصومات والإيمان وغير ذلك وبين مجلس القضاء والصحن الصغير والزاوية التى هناك بمقدم القبلة بابان فاصلان بذلك وبين مقدم الصحن والدارين المذكورين وقبلة الجامع خمسة أبواب.

فالأول : الذى يدخله الخلفاء لشهود صلاة الجمعة عن يسار المحراب ، وباب موضع المنبر وثلاث مشارع لها أغلاق تنطوى عند فتحها من عمل جيد وصناعة غربية ، والباب الأول من هذه الثلاثة القريب من المنبر منه يخرج الخطيب للجمعة ومنه يتوجه للصلاة على الجنائز ومنه للمقام المعلم للجنائز التى تكون هناك.

---

(1) بياض فى الأصل .

سوارى
وسقوف وما أشبه ذلك

وعـــدد سواريها الحاملة لسقوفه ثلاثمائة سارية منها عشر من حجر ملون غريب الخلقة والمشترك من جملتها اثنتان وثلاثون وساترها يدار عليها ومن الاتفاق الغـــريب فى هـــذه السوارى أن الثلاث منها عن يمين الواقف مستقبلاً تحت الثرية الكبرى يبصر من دار بها جميع أبواب الجامع التى بداخله وطوله من شرق إلى غرب الـــثلاثمائة وثمانون شبراً ومن مقدم القبلة إلى الجوف ثلاثمائة شبر بعد تكسير مسافة المقدم المذكور وعدد بلاطاته إحدى وعشرون من شرق إلى غرب وسبعة عشر من مقدم القبلة إلى الجوف مع الصحن الأكبر الذى طوله من شرق إلى غرب مائة شبر وثلاثـــة وتســـعون شبراً وعرضه من قبله إلى جوف خمسة وسبعون شبراً وبلاطاته المســـقفة أحد عشر بلاطاً والحاسرتان ومساحة جميعه ثلاثة مراجع وثلاثة أرباع من المـــرجع السلجماسية ويملاه من المصلين ثلاثة عشر الفاً على أن يكون فى البلاط الواحـــد سبعمائة وخمسة وستون شخصياً اساطين البلاطات مائة وخمسون شخصياً بعـــد حط مواضع السوارى وعدد ثرياته التى توقد بها المصابيح مائة وثلاثون ثرية جميعها من النحاس مختلفة الألوان والصناعات والأشكال والهيئات منها عشر معلقة فى الـــبلاط الأوسط ، وفى الثريات يندرج العشرة نواقيس المكفنة بالنحاس والباقى الـــثريات وذلك مائة وعشرون معلقة فى سائرة وزعموا أن فيها من مراكز السرج ألفـــان اثـــنان يوقد بعضها فى سائر ليالى السنة ويكثر منها فى ليالى رمضان ويوقد جميعها فى ليلة السابع والعشرين وعدد صبحات الزجاج التى توقد فيه أيضاً بطول ليـــالى الســـنة سبعون العارفات، منها خمسون وسائرها ثلاث وبلديات وعمل فى خارجه بدائرة حريمه فى مواضع معروفة أربعون سراجاً يهتدى بها المارون فى دربه ،

وقـــد أعد لخدمة ذلك كله على الكمال ونادى الأمير بحكم ذلك وأجرى له جراية مـــن فوائـــد أحباســـه وينـــبغى أن تكثر سرجه وتغاظ فتائلها إذا أكثر ماله فإن الاستضـــاءة بهـــا أنســـاً للمجتهدين ونفياً لمكان الريب ومبلغ غلات أوقافه على أخـــتلافها فى بعـــض الأعوام عشرة آلاف فضية ومن جملتها الفندق الكبير الشهير الـــذى بسوق الشماعيين المحبس عليه من قبل مولانا أمير المسلمين أبي يعقوب رحمه الله تعـــالى وكان سبب تحبيسه أنــــــه كان من جملة المستخلص لجانب الخلايف وقد أهمـــل.

فأما فى أيام ولاية أبي عبد الله الحدودى بفاس أمره القاضى الفقيه محمد بن أبي الصبر ببنائه وإصلاحه فتوقف فى ذلك وأراد أن يكون بإذن من الخليفة فأشهد القاضـــى على نفسه شهوداً أنه لم يوقف له فى المحاسبة وإلا فهو الملتزم لما اتفق فيه فبـــناه الحدودى على ما هو الآن عليه تحت نظر أبي عبد الله بن أبي الصبر ثم أعلم بذلـــك الخليفة أبـــا يعقوب فسأل الحدودى عن ذلك فأعتذر له وبين له ما التزمه أبو عبد الله بن أبي الصبر فأغاض لذلك الخليفة وأمر باشخاصه وبعث غليه الحشم قوماً بعد قوم وخيف من ذلك عليه .

فـــلما جـــاء القاضى مر فى أثناء ذلك على الروضة التى دفن فيها الإمام الحافظ أبو بكر بن العربى رضى الله عنه وإذا بفقير خارج منها ومخاطب أبي عبد الله ابـــن أبي الصبر وقال له : قل بحق لطفك بلطيف صنعك وجميل سترك دخلت فى كـــنفك تشـــفعت بنبيك فحفظ ذلك ودخل على الخليفة وهو يذكر هذه الألفاظ فـــأقعده بازائه وأظهر له الإكرام والإعتناء به ثم سأله عن سبب أمر للحدودى فى الفـــندق فقال له أمرته بذلك لأنه غلب على ظنى أنك تحبسه على جامع القرويين فأستحسن ذلك وشكره وأشهد فى الحين بتجبيسه كذا كان يتكرر ذلك النقل عن أبي عبد الله بن أبي زرع وغيره وصارت هذه الألفاظ التى دعا بها وكان تحبيس هذا

الفندق بسببها عند الناس كنزاً جامعاً وحرزاً نافعاً يتوسلون بها إلى الله فى حوائجهم وظهرت عجائبها لكثير من الناس فى مطالبهم ويذكر أن الرجل الذى لقنها إليـــه هو سيدنا الخضر عليه السلام .

وعـــدد المؤذنـــين والقومة فى غالب الأوقاف اربعون شخصياً ، ولهم على ذلك فوائد مختلفة على مر الأعوام .

وأما قراءة الحزب فيه بعد صلاة الصبح والمغرب فأنه كان أمر به يوسف ابـــن عـــبد المؤمن بن على فى سائر بلاده كذا نقله ابن صاحب الصلاة وأنتدب لذلـــك ناس وأستمر إلى إيالة مولانا أمير المسلمين أبى الحسن رحمه الله فأنه أجرى جراية لعشرة اشخاص من القراء، وأمر بذلك فى سائر جوامع بلاده .

وأمـــا قراء الكتب فيه الاسماع الناس بعد الفراغ من قراءة حزب الصبح فإن بعض أئمة الجامع فى أول إيالة بنى مرين أعزهم الله كثيراً ما يقرءون بين يديه فى أول الـــنهار تفســـير القـــرآن للثعلبى رحمه الله تعالى وحلية الأولياء . . . . [1] وذلـــك فى جهة خاصة منه وكان له قارى محسن مجيد لذلك وكان يحضر له بعض الـــناس وكانوا يجلسون متفرقين حلفاً حلفاً ربما يأخذون فى أمور الدنيا إلى أن تطلع الشـــمس فينصـــرفون فاشـــر هذا الإمام على القارىء المذكور أن يتصدر حزب المحـــراب فى الوقت المذكور ويقرىء هنالك من هذه الكتب فصولاً لاسماع الناس فأجـــتمع إليـــه سائر من كان يجلس به وأنتفع الناس بذلك كثيراً وربما أجتمع فى المجـــلس آلاف من الناس وذلك سنة إحدى وخمسين وستمائة . وأعلم بذلك من كان إذ ذاك من خلفائهم فأستحسنه وأجرى للقارئ جراية فأستمر ذلك إلى الآن.

ومـمـــا جـــرى فى انتصـــاب قبلته فيما حكى أن أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب

---

(١) بيـــــاض فى الأصـــــــل .

العـــالمين أبا يوسف بن عبد الحق رحمه الله تعالى لما أمر ببناء المدرسة اليعقوبية التى بقبلـــته سنة سبعين وستمائة ، وكان الذى انفرد لنصب قبلتها المعدل أبو عبد الله محمـــد بن الحباك، ولم يشاركه فى ذلك غيره من أهل علم الهيئة ، وظهر أنها منحرفة عـــن قبـــلة جامع القرويين ، أنهى الأمر فى ذلك لمولانا أمير المسلمين أبى يوسف ، وقـــال بعـــض مـــن حضره ممن لا يحسن السؤال والجواب فى ذلك، أن فى بعض المساجد فاس أنحراف بعضها عن بعض فرأى رحمه الله أن جمع الفقهاء المذكورين فى أهل زناتة للنظر فى ذلك .

يحكـــى أنهم قالوا : أن جامع القرويين نصبت قبلته على سمت القبلة التى نصبها الرجل الصالح مولانا إدريس بن غدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن ابى طالب رضى الله عنه ومر على ذلك متون من السنين .

وقد صلى إليه جماعات من العلماء والصلحاء والقضاء وأمراء العدل ممن يقتدى بأقوالهم وأفعالهم ومنن لا يحل لأحد أن يظن بهم إلا خيراً ، فلم يغيروا ذلك وما حرفوه وما يظهر فى بعضها من الإنحراف عن بعض قد يقرب من الصواب على رأى من يرى أن المطلوب من قبلة سائر الأفاق إنما هو الجهة لمكة شرفها الله تعالى ، والجهـــة فى ذلـــك حاصـــلة وهذا القول هو الراجح وإلا فكيف يقدر على تعبير السمت أعنى سما البيت بل غاية ما عند الناس فى الآفاق الغائبة عن مكة شرفها الله تعالى المحافظة على جهة البيت لا سمته .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : «ما بين المشرق والمغرب قبلة» [1] فأقر ذلـــك كلـــه عـــلى حال رحمه الله تعالى ، وقد سلم هذا الجامع المبارك من البدع

---

(1) رواه الترمذى والنسائى .

القبـــيحة ولم يتعرض فيه لما تعرض له فى بعض الجوامع ومما ظهرت فيه بدع فأن الله سبحانه يلهم من يزيلها فيزيلها .

وجـــرى فى أول ســـنة تسع وأربعين وسبعمائة أن بعض المجودين لقراءة القـــرآن إن كان يقعد بين يديه الأحداث من الصبيان لتجويد القراءة، فيجتمع إليه الناس إلى أن حدثت فتن بسبب ذلك فرفـــع ذلك الشيخ الفقيه الصالح المدرس أبي فـــارس عـــبد العزيز بن محمد القروى رحمه الله تعالى ، فأشار على بعض من له الحكم النافذ أن يشتَّد فى تغيير ذلك ويمنعه كل المنع ، فمنعهم وفرق جمعهم لما رأى أن هـــذا الصـــبى القـــارئ بين يدى هذا الشخص ، ليس ممن يقصد التعليم وليس جلوســـه كجـــلوس المتعلمين، أمر بإقامته عملاً على ما فى المعونة وغيرها من إقامة الـــذى يجـــلس فى المسجد يوم الخميس أو غيره لقراءة ونظم ذلك الشيخ الأستاذ المقـــرى أبـــو الحســـن بن سبع رحمه الله تعالى قصيدة قرئت على الشيخ أبي فارس المذكور فكانت سبباً فى اشتداده على قيام هذا القارئ وهى هذه :

ألا حقّقوا عنى مقالا هو الجـــــدّ	لمنهاج أهل الحق يسعده القصد
أقول احتساباً ليس منى تعصبـــا	على أحد ممن ينظمه العقـــــد
ذووا العلم فى الأقراء ضاعت صفاقم	ولم يبق منهم غير ما وسمه يبدو
رياء وعجب وانتصاب وشـــهرة	وتسميع من يرجى بتسميعه رفد
ألم ترفاَس الغرب أعظم بقدرهـــا	وجامعها العظمى التى لها تعتـــدّ
لنفع عبادة وتوسيع موطـــــن	جميع رجال الله يأتوها وفـــــد
فلا بدع فيها ولا منكر لهـــــا	وابوابها إن فتحت فلها الســـدًّ
تبرز للإقراء فيها جماعـــــــة	ولا خبرة تبدو لديهم ولا تعدو
سوق نغم يبدوها بتحيـــــــرً	وتغريب الحان لمن راح أو يغدو

فبعضهم فى جمعة وخميســـــــها يُجمّع حفلا ليس يحضرها العدّ
وعن مثل هذا حذّر الحبر مالك وقال لمن يبديه فى المسجد الطردُ
وبعض بتلميذ له حسن صــورة شباب له صوت لنيل الهوى رصّدُ
كأقراص نحل قد ملئن بسّــمها فباطنها حتف وظاهرها شهـــدُ
فيقعد أمَّا لا صقا جنبه وأمَّـــا أماماً بارزاً للورَى يشــــــدُو
يعظُمه بالقرب منـــه مكانُــــه وذلك عند الله جـــل أسمه بُعْدُ
ويعقبه جزء من الوعظ رافعـــا به صوته كيما القلوب له تغدُو
يردده والحفل غصّ بأهـــــله برفع وحطّ هاكذاالصدر والوردُ
وجلّ كتاب الله عن حاله الغنـــا وتطريب أصوات بها يقع الوجد
ولهذا لعمر الله أكبر بدعـــــه يقابلها المنع المبّرح والـــــردّ
لفاعلها لعن وتغليظ زاجـــــر وأيضاً وعيد فى القيامة لا وعد
وما هذا آثار قوم تقدمــــوا من أهل كتاب الله أفتاهم الجهدُ
فقد عرفوا عند النهار بصومهم وفى ليلهم ايضاً الفهم الســـهدُ
مضت بهم الأعصار يبكى لفقدهم فيا أسفا إدخل بى عنهم الفقـــد
مضى سلف الأخيار أكرم بقدرهم وأعقبهم قوم قد ابتدعوا نكـــدُ
وليس لهم فهم به بتدبّـــــــر معانى كتاب الله إذ منه يهتدوا
جميع علوم الخلق منه تفــرعت وكل حدود الله فهو له حـــدّ
أو أمرنا والنهى قد وضحت بـــه ولا كن عين الجهل عن ذاك تنسدّا
وقد حرمت فيه الفواحش كلهـــا سوا ظهرت أوابطنت حالها فردا
وقد جاء فى الإخلاص فيه أوامــر وذم رياء الناس جاء به الســرُد
وفى صحبة الأحداث ما ليس يُحتفى من الذم إذ فى فعله عُدمَ الحمدُ
فخالطهم فى دينه سوف يرتـــد ولو بعد حين إذ شياطنهم جندُ

ولا تصلــح الصبيان إلا لمكتب ... وليس لهم فى موطن غيره رشدُ
فعمر بن يوَحّنـــــا ومُدرك عبرة ... فبعدا لذا منها عُرىَ المنع تشتدُّ
بها تضرب الأمثال فأحذر سلوكها ... طريقته حتى بغيك اللحــــــدُ
فكم من جليل القدر قد حظ قدره ... ورفعته لمَّا تلاقته المــــــردُ
فإن تقبلوا نصحى فأنى نصحتكم ... ونفسى قد اوصيتها ذاك لاتعدُّو
فمن كان ذا نصح لعلم يُقـــره ... بإخلاص تقوى الله يعقبه الرشد

وقال الإمام الشاطبى وهذا بأبياته التى مطلعها .

خذوا النظم عنى وانظروا منه سرهُ ... فلا يخشى فى اللحن عمر ولازيد
وإنى لأهل العلم والدين خــــادم ... نعم وأشهدوا أنى لجملتهم عبدُ
فهم عمدتى فالله ينفعنى بهـــــم ... وتشملنى البشرى من الله والسعدُ
وأما رعاع الناس من كل مــدَّع ... فليس له قبل لدًى ولا بعــــدُ
وليس على الأعمال منهم طلاوة ... متبحة منها الصحائف تســود
لهم مثل ما قالوا كذا هو عندنــا ... ومن أنتم حتى يكون لكم عبدُ

ومدرك المشار إليه فى هذه الأبيات هو الذى أنشد الرجز المشهود فى شأن عمر بن يوحنا النصرانى ولولا ما التزمناه من ستر الحجابات ودفن السقات لشرحنا أمرهما والله يعصمنا من الفتن والزلات فمن الرجز قوله :

من عاشـــق نــاد هواه دان ... ناطق دمع صامتُ اللســان
موثق قلب مطلق الجثـــمان ... معذب بالصدَّ والهجــــران
من غير ذنب كسبت يـــداه ... غير هوى نمت به عينــــاه
شوقاً إلى رؤية من أشـــقاه ... كأنه عفاه من أضنـــــاه
ياليتنى كنتُ له زنَّـــــارا ... يدير بى فى الحضـــر حيث داراً

وهـذا الجامع المبارك قد يشكو بلسان حاله فى بعض الأزمان عند أهماله وذلك أن الذين أسسوه وزادوا فيه الزيادات ورتبوه وحبسوا له الأوقاف وعظموه ومـنعوا السـرق وحددوه وإنما فعلوا ذلك بنية صالحة وعزمات ناجحة وإنما لكل أمرى ما نوى ، فينبغى أن يسلك فيه طريق الأولين ويتبع فيه سبيل المؤمنين والقيام بالمسـاجد ركـن من أركان الدين وطهارتها ونظافتها شرط فى صلاة المصلين وهى بيـوت الله أن ترفع وتظهر للقائمين والعاكفين واركع وأحوال الدنيا فيها ممنوع وأعمـال الأتية الأخراوية فيها مشروع والصلاة هى أول ما ينظر فيها من أعمال العبيد.

فأما القرب من الل بقبولها أو الطرد والردَّ بردها فرحم أمراً وأفنى أمرها وأدَّى الأمانة التى طوقها وضبط أحوالها ونمى أموالها وأخذه من حله بعد الاجتهاد وصـرفه فى مواضـعه بالنظر الدينى ووجه السداد وازال ما يكون من ضرر فيها واستقصـى أمورها حتى يستوفيها فذلك يكون ممن رفع قدرها وأستوجب أجرها ومهما اصبحها الاهمال والاعراض شكت غد ذاك بلسان الحال لربها .

روى أن مسـجداً مـن المنـاجد ارتفع إلى السماء شاكياً إلى الله بأهله لعملهم أعمال الدنيا فأستقبلته الملائكة وقالوا بعثنا بهلاكهم .

حكـى معـناه الإمـام الطرطوشى رحمه الله فى كتابه المسمى بالنهى عن الحـوادث والـبدع الذى فى تواليفه وحملنى ذلك على سرد هذه الفصول لتكون تنـبيها لمن ولى أمرها من الغافلين وإيقاظهم من السنات عسى الله أن ينفعنى وأياهم فى الحية وبعد الممات .

بناء جامع الأندلس

فلنرجع إلى بناء جامع الأندلس وأنما بناء بناء جامع الأندلس فأن الذين أعتنوا بتاريخ فاس ذكروا أنه أبتدى البناء فيه سنة خمس وأربعين ومائتين على يد مريم بنت محمد بن عبد الله الفهرى بعد أن أشترت أرضه بوجه صحيح وأنفقت فى ذلك كله من مالها الموروث عن أبيها وسمى بذلك لأن الإمام إدريس بن إدريس لما وفد عليه وقد فروا من جزيرة الأندلس أنزلهم بالعدوة الشرقية من فاس فسميت لذلك بعدوة الأندلس فلما أسس جامعها وكان ممن أعان فى بنائه جملة من الأندلسيين الساكنين هناك سمى الجامع بهم .

وقال البكرى[1] فى مسالكه أنه من ست بلاطات وله حصن صغير به أصول جوز وغيره من الأشجار وسقاية غزيرة الماء تعرف بسقاية مصمودة .

ويذكر أن أحد أعمال الناصر لدين الله المروانى حين تغلب على بعض بلاد المغرب زاد فيه زيادات من جملتها الصومعة التى فيه وذلك فى جمادى الأولى سنة خمس وأربعين وثلاثمائة حسبما كتب فى عتبة بابها ونقلت الخطبة إليه من جامع الأشياخ على يد حامد بن حمدان الهمدانى عامل عبيد الله الشيعى حين تغلب على فاس سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وكان أول خطيب خطب به الفقيه الصالح أبو الحسن بن محمد الصدفى فلم يزل الأمر على ذلك إلى أن زيدت فيه الزيادة المشار إليها على يد عامل الناصر لدين الله ولم يزل أيضاً كذلك إلى أن أنهى للناصر

---

(١) هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكرى الأندلسى أبو عبيد مؤرخ جغرافى ، ثقة علامة بالأدب ، له معرفة بالبنيات . مات سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م .

انظر المزيد فى : الصلة لابن بشكوال ٢٨٢ ، طبقات الأطباء ٢/ ٥٢ ، بغية الوعاة ٢٨٥ ، آداب اللغة ٣/ ٨٤ .

الموحدى سنة ستمائة أنه يحتاج إلى الإصلاح والبناء فأمر ببناء الباب الكبير الجوفى الذى به الدرج وسعته عشرون شبرا وأرتفعه سبعة وعشرون شبراً وأدراجه أربعة عشـــر درجـــة وبأسفل إدارجه شباك من خشب الأرز فيه ثلاثة أبواب فى الأوسط بيـــلة مـــن الحجر الأصفر ينفجر بها الماء من وادى مصمودة الذى يمر بأسفل هذا الـــباب الأكبر ليغسل الحفاة بها أقدامهم وصنع بأعلا هذا الباب قبتان أحدهما من جـــص مقربســـة من داخله ، والثانية من خشب الأرز من خارجة وكان بها طلسم للخطاف لا يدخلها ولا يمر بها ولا يعشش فيها وتعطل فى سنة عشرين وسبعمائة.

وأمـــر أمير المسلمين الناصر أيضاً ببناء سقاية ومدخل لبيت صلاة النساء وعـــليها مصـــرية لأئمـــة الجامع وذلك عن يمين الخارج من الباب المدرج المذكور بالقـــرب مـــن ذلك دار الوضوء تحاكى التىُ بجامع القرويين وخصتها أمر بعملها السـيد أبـو ذكريا ء يحيى نجل خلفاء الموحدين وأنفق فيها من ماله ولم يزل الجامع كذلـــك إلى أن أعتلت سقفه وجملة سواريه فأنهى خطيبه الشيخ الصالح أبو عبد الله محمـــد بن أبى القاسم بن حسونه فأمر هذا الجامع لأمير المسلمين مولانا أبى يعقوب رحمه الله فأمر بإصلاحه وذلك على ماهو عليه الآن فى سنة خمس وتسعين وستمائة.

وكـــان الناصر الموحدى قد جلب الماء له بعين خارج باب الحديد فأعتدل فى مواضع وجلب له الماء من وادى مصمودة إلى إيالة أمير المسلمين أبى ثابت فأمر بجـــلب المـــاء له من العين التى بخارج باب الحديد وببناء السقاية الغربية من جوفه وذلك سنة سبع وسبعمائة .

وعـــدد بلاطاته من شرق إلى غرب خمسة عشر بلاطاً ومن قبلته إلى جوفه ثلاثـــة عشر بلاطاً . وفى قدم منكبه المرتفع مقدار بلاطاً بعد تعديل أنحرافه بالمساحة وفى طولـــه على هذا من قبله إلى جوف مائتا شبر وعرضه كذلك فيكون فىالبلاط الواحـــد وأســـاطينه من أشخاص المصلين ثلاثمائة شخص فعدد ما يملاه من المصلين

علـــى هـــذا أربعة آلاف شخص ومائتا شخص بعد حط مواضع السوارى وعدد سواريه مائة سارية وأربع وثلاثون سارية .

وأمـــا صـــومعته فى كل وجه منها ستة عشر شبراً وفيها من الأدراج أربع وسبعون درجة وأرتفاعها سبعون شبراً فيما ذكر .

وفى أعلى هذه الصومعة قبة لجلوس لتداول الأذان وعدد المؤذنين والقومة فى هـــذا الجـــامع المـــبارك عشرون شخصاً ولهم على ذلك عوائد وفوائد معلومة عـــندهم، وقد عمل فى أعلى هذه الصومعة صارى من خشب ينشر فيه علم أيض فى أوقـــات صـــلاة الـــنهار وفنار مسرج فى أوقات صلاة الليل فى أول إيالة مولانا المـــتوكل أبى عنان ، رحمه الله والمؤذنون فى هذه الصومعة يفتضون ف أذانهم بأذان أهـــل جـــامع القـــرويين عـــلى العادة القديمة المتداولة الآن وعدد ثرياته الكبرى والصـــغرى إحـــدى وستون ثريا الكبار منها خمس قد علقت بالبلاط الأوسط منه وبقيـــتها فى ســـائر الجامع فى مواضع معلومة منه ، وفيه من الصبحيات العرافيات خمس بقرب محاربة وثلاثون بسائره وفى فرش صحنه من الأجر من شرق إلى غرب مائـــة صـــف وأثنان وثلاثون صفاً فى كل صف مائتا أجورة وله من الأبواب تسعة فمن الجانب الغربى ثلاثة ومن الجوفى الباب المدرج المذكور . ومن الجانب الشرقى خمسة منها أثنان يدخل منهما الماء المقدم الجامع الذى سصلى فيه على الجنائز وبين مقدم الجامع وبيته الأعظم بابان مدرجان أحدهما عن يسار المحراب لدخول الخلفاء مهمـــا أرادوا وشـــهود صلاة الجمعة، والثانى عن يمين المحراب والمنبر ومنه يخرج الخطيب ومنه يتوجه لصلاة على الجنائز .

وكـــان جملة من الفقهاء يدرسون العلم فى مواضع من هذا الجامع وكانوا أهـــل الشورى ممن يقتدى بهم يقصدهم الناس من أقطار البلاد فمن متجرد لتلاوة القـــرآن . ومن مدرس ومن طالب لما شاء من فنون العلم فى مجالس شتى وكان فيه

أيضاً جملة من الصلحاء والعباد يلتزمونه قد تفرقوا للعبادة بعد تحصيل العلم ويقصدهم الناس للفتوى وطلب العلم والتماس الدعاء كالفقيه الولى الصالح الورع حبر الله بن القاسم الأندلسى نزل عدوة الأندلس من فاس ، وهو ممن أدخل علم مالك إليها وهو من مشاهير فقهائها ومتقدميهم ، لقى أصبغ بن الفرج[1] وسمع منه كذا قال صاحب المدارك حدث عنه أن رجلاً رأى فى النوم كان قائلاً يقول له إن شئت أن ترى نظير معاذ بن جبل فصل فى الجانب الغربى من جامع الأندلس فالذى يدخل وعليه برنس وصفته كذا وكذا هو ذلك ففعل ارجل فإذا بجبر الله القاسم رضى الله عنه على الصفة الذى ذكر له القائل فى النوم وهو ممن لحق دراس ابن إسماعيل ويذكر أن دراساً رحمه الله لما قدم بكتاب محمد بن المواز ، قال له جبر الله ما الذى جئت به فأخبره بالكتاب المذكور فقال له أذكر منه فجعل دراس يذكر المسائل وجعل جبر الله يجيبه بما حفظ ومالم يحفظ فاسه على أصول مذهب مالك رحمه الله فما خالف كتاب محمد بن المواز إلا فى مسئلة الثور إذا اشتراه فى أول الدراس ولم يشرط أنه دراس فوجده لا يدرس فهل هو عيب يرد به أم كذا ؟ المفيد بخط الفقيه أبى عبد الله محمد ابن القاضى أبى العباس أحمد بن ميمون القشتالى رحمه الله تعالى وكان يلتزم هذا الجامع المبارك وولى القضاء بعدوة الأندلس الفقيه الصالح الولى أبو محمد عبد الله بن محسود الهوارى قدم من مدينة ياوربة ونزل فى جهة باب بنى مسافر عن عدوة فاس الأندلس وكان رحمه الله عدلاً ف آحكامه ورعاً فى جميع أحواله رحل إلالقيروان ، وله محمد بن أبى زيد رضى الله عنه وشاهد تأليفه النوادر وكان يعدّ من رجال المدونة ثم ولى القضاء بمدينة فاس كما ذكر

---

(١) هو أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع فقيه من كبار المالكية ، قال ابن الماجشون : ما أخرجت مصر مثل أصبغ وكان كاتب ابن وهب وله تصانيف مات سنة ٢٢٥ هـ .
انظر المزيد فى : وفيات الأعيان ١/ ٧٩ ، خطط مبارك ٦/ ٣٠ .

وكان رجلاً مثلاً من الدنيا مجتهداً فى الآحكام أقام الحدود كلها قتل وصلب وقطع الأيدى وأقام اللعان وغير ذلك .

ولما وفى رحمه الله طلب فى فاس من يعامله فى شتى فلم يوجد له معامل فبحث عن سمنه وزيته من أين كان يشتريه فوجد له صاحب بمكناسة الزيتون يشترى له بها الزيت والسمن ويبعثه إليه ويأتيه قوته من القمح من هوارة وزوجته تغزل كسوته ، من الثياب القطنية رضى الله عنه وقبره بخارج باب الجيسة فى أسفل الموضع المعروف بالقبة له كرامات يطول ذكرها والدعاء عند قبره مستجاب .

وقصدنا بهذه الحكايات وأمثالها البركة فى سود أقوالها وجاء نزوله الرحمة عند ذكرهم وذكر أمثالهم فأنه قال سفيان بن عيينة[1] رضى الله عنه عند ذكر الصالحين تتنزل الرحمات .

وقال بعض المشايخ حكايات الصالحين جند من جنود الله تعالى يثبت بها قلوب أوليائه وشاهد قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [2]وما أحسن قول القائل :

أحب الصالحين ولست منهم ... وأرجو أن أنال بهم شفاعة
وأبغض من بضاعته المعاصى ... وإن كنا شركاء فى البضاعة

---

(1) هو سفيان بن عيينة بن أبى عمران ميمون الهلالى أبو محمد الكوفى الأعور ، أحد أئمة الإسلام . روى عن عمرو بن دينار والزهرى وزياد بن علاقة وزيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر وخلق . وعنه الشافعى وابن المدينى وابن معين وابن راهوية والفلاس. مات سنة ١٩٨ هـ . قال الشافعى : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز .

(2) سورة هود الآية ١٢٠ .

وهـــذا انـــتهى القول فيما قيدته واله سبحانه ينفع بما قصدته ونوبته أنى لســـت من أهل التأليف ولا من أهل المعروفة بالتصنيف لكن إذا صبر المنبت رعى الهشـــيم لعمـــر أبيك ما نسب الصلا إلى كرم وفى الدنيا كريم ولا كن البلاد إذا قشـــعرت وطرح نبتها رعن الهشيم فمن نقل ما قاله الناس فما عليه من بأس فمن وجـــد فى هـــذا الـــتقييد خطأ فليصلح أو زلا لا فليمح فالعصمة من الخطأ متعدة وأوقـــات البحث غير مستحضرة والأمر كله لله ولا حول ولا قوة إلا بالله والحمد لله الـــذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله وحسبنا الله وكفى وسلام عـــلى عـــباده الذين صطفى وصلى على سيدنا ومولانا محمد المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً أثيراً يرد عليه بكرة وأصيلاً . انتهى *

---

* هـــذا أخر الكتاب .

فهرس

فهرس

رقم الإيداع	٨٥٦٥ / ٢٠٠١
الترقيم الدولي	977-341-032-3

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد / الظاهر
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧